

اوتوری دی بزرگ

الأب الخالد

فیلم



روایت قصص العالم

روایت الملال

رواية الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن (دار الهلال) شركة مساهمة مصرية
رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكري زيدان
مدير التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٤٨ * ديسمبر ١٩٥٢ * ربيع الأول ١٣٧٢

No. 48 * December 1952

بيانات ادارية

من العدد في مصر والسودان ٧٠ قسطا - في الاقطار
العربية عن الكميات المرسلة بالطايرد : في سوريا ٩٠
قرشا سوريا - - - لبنان ٩٠ قرشا لبنانيا -
في الاردن ١٠ فلسا - في العراق ٩٠ فلسا

قمة الاسراك عن سنة (١٢) عددا : في القطر المصري
والسودان ٧٠ قرشا - في سوريا ولبنان ٩٠٠ قرش
سوري او لبناني - في المملكة العربية السعودية والعراق
الاردن ٩٠ قرشا صاغا - في الامريكتين ١/٢ دولار
في سائر انحاء العالم ١٢٢ قرشا صاغا او ٢٥ شللا

طريقة الدفع

في مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات احوالات
مدينة او شيكات - في خارج القطر المصري : بموجب
حوالة مصرفية على احد بنوك القاهرة او حوالة نقدية
(Money Order) او الى احد وكلائنا اذا كان هناك وكيل .
لا يمكن قبول اذونات البريد او العملة الاجنبية

الاراء : دارالهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك - القاهرة
الاراء : دارالهلال - بومستة مصر العمومية - مصر
الاراء : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاراء : ١٠١٠٠ - ١٠١٠٠ - ١٠١٠٠ - ١٠١٠٠ - ١٠١٠٠ - ١٠١٠٠ - ١٠١٠٠ - ١٠١٠٠ - ١٠١٠٠ - ١٠١٠٠

كلمة التحرير

كتب بلاك هذه الرواية وهو في ربيع الحياة ، واولج الشباب ، فقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره ، وقد درس الناس ، وعرف الطباع البصرية الأصلية ، فهو يقدم فيها نموذجاً بشرياً من نوع أصيل ، هو الأب جوريو الذي خلق أبا وكى ، وكانت أبوته هي كل شيء ، بل هي الأبوة الخالدة التي لا تعرف غير الختان الجارف ، والتضحية الصادقة التي ملقت على كل شيء وسلبته كل شيء ، ولم تعرف في الدنيا شيئاً اسمه حب الذات أو اسمه الحق أو المنطق أو الأخلاق ، مادام الأب يهدف إلى سعادة أولاده

ولقد صور بلاك في رواياته الحياة الإنسانية وما فيها من مفارقات سماها هو « البكوميديا الإنسانية » ، وهي في الواقع أحفل بالدموع منها بالابتسام ، وادعى إلى احتقار المجتمع الخائل بالآسي . ولهذا كان الهدف الأول من هذه الرواية هو النقد الاجتماعي ، وتصوير النفس الإنسانية ، بما فيها من فضائل وقائص ، فهذا الأب الفريد في بر الأبوة يقابله عقوق البنوة العجيب ، وإلى جوار ذلك شخص يمثل النفاق ، والطمع والخداع والقسوة .. والكاتب للبدع هو الذي يخلق نماذج بشرية ، كلما طالها الانسان عرف فيها البصر ، وعرف الطبيعة البشرية ذات العجائب والمفارقات

ولهذا كانت رواية « الأب الخالد » من الروايات الفذة التي ترتفع فوق المألوف في الصور الأدبية ، والانتاج القصصي المجيد فقد جرى بلاك في إبداع النماذج البشرية مع دستوفسكي العظيم أعظم المبدعين في هذا الميدان ، وكلاماً ارتفع في الإبداع إلى ما فوق الزمان والمكان



أما الرواية التالية ، فهي « مغامرات مستر بيكويك » للقصص الأشهر شارل ديكنز ، وتصدر في ١٥ يناير القادم . وهي الرواية المقررة هذا العام على طلبة شهادة التوجيهية بالمدارس المصرية ، وقد ترجمناها ترجمة وافية . وتمتاز هذه الرواية بمجال خيالها ، وحيويتها الدافقة ، وروحها الطريفة الضاحكة . وهو يعرض فيها صوراً ساخرة من أولئك المترفين الأدعياء الذين حرمتهم الطبيعة من المواهب المتأيزة بقدر ما أعدت عليهم من غرور . ولئن كان ديكنز خليقاً بالقراءة في كل زمان ، فهو بها أخفى في وقتنا هذا ، وقد نهضنا نهضة مباركة للقضاء على السخافات وتصحيح الأوضاع والانتصار للعنالة الاجتماعية

الأب الخالد

تأليف

الكاتب القرصي

أوفوريه دي بلزرك

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

شخصيات الرواية

الاب جوريو : شبخ في السبعين في زمن هذه الرواية ، تركزت فيه عواطف الأبوة وتجرد من كل ماعداها . من العامة أثرى من الاتجار في السوق السوداء ، وجرد نفسه من ثروته ليهب كلا من بنتيه مليوناً تتزوج به رجلا من عالية القوم **دلفين :** ابنة جوريو وبارونة دي نوسنجن ، عقيلة رجل من كبار رجال المال والأعمال فظ . اشتركت مع شقيقتها في النبؤ من أبيها بعد زواجهما لحجلهما من سوفيته

انستازى : شقيقتها ، كونتس دي ريبسو ، عقيلة رجل من أعرق نبلاء فرنسا ، كانت أشد على أبيها من أختها

ايجين : شاب من أسرة عريقة أخنى عليها الدهر ، فاعتزلت في ضيعة حقيرة تحاول ستر اسم « دي رستيناك » وتمقد الأمل على هذا الشاب ايجين الذى يدرس الحقوق في باريس كي يقبل عثرة الأسرة

مدام فوكير : أرملة عبوز غايطة القلب شجيعة ، تدير خائاً ينزل به الأب جوريو والشاب ايجين

فوتران : نزيل آخر بالخان ، يتخرج فيه الإقدام بالطيبة والرح ، وسيكون له مع ايجين شأن وينتهى أمره نهاية تنير الدهشة

فيكونتس دي بوسميان : سيدة عقليمة السكاة ، تمت بالفقرى الى أسرة ايجين ، تقدمه للمجتمع وتهد له النجاح فيه



مؤلف الرواية



كان في العشرين من عمره حيناً أتم دراساته العالية في القانون والآداب سنة ١٨١٩. وأراد أبواه وأفراد أسرته أن يعمل محامياً لكنه أبى إلا أن يتفرغ للشعر والتأليف ، وغادر قرية « فيلباريسى » مقر أسرته قاصداً إلى باريس حيث أقام وحده بغرفة صغيرة متواضعة ، وأخذ يقضى نهاره في الدرس والبحث والطواف في العاصمة الكبيرة ، ثم يعود لقرفته في المساء فيمد طعامه بنفسه وبعض ساعات في الكتابة على ضوء شمعة أو مصباح صغير

ولم تلق مسرحيته الأولى « كرومويل » ما كان يرجو من نجاح ، وكذلك رواياته الشعرية والنثرية الأخرى التي ألفها في ذلك الحين ومن بينها « الفرسان » و « القديس لويس » و « روبير دى نورماندى » و « سبلا » . فاضطر إلى العودة لقرفته إذ عجز عن تدبير أمر معيشته بنفسه بعد أن انقطعت عنه الاعانة المالية التي كان يتلقاها من أبيه . وعيناً حاول هذا أن يقنعه بترك الكتابة والالتحاق بأحدى الوظائف الحكومية أو التجارية ، إذ كان لا يطيق قيود الوظيفة ولم يداخله اليأس من أن يصير كاتباً عظيماً كما يريد

وفي سنة ١٨٢٢ عاد لباريس مع أسرته التي انتقلت إليها ، وأخرج كثيراً من الروايات بأسماء مستعارة ، ثم عمل في الصحافة وكتب فصولاً مختلفة في الأدب والفن والتاريخ والعلوم النفسية والتجارة والصناعة وغيرها . ونشرت له سلسلة من الروايات البوليسية وقصص المفامرات والأفانيس الصغيرة بلغ عددها حوالى الأربعين ، ولكنه لم يكن راضياً عن أكثرها

وبقى على ذلك سنين ، يكتب ليعيش ، ويواصل البحث والدرس والاطلاع ، وعرف قلبه الحب خلال ذلك غير مرة ، لكنه لم يوفق في حبه وبقي بعد أخته « لورا » صديقه ومرشدته الأولى ويكتب إليها بعد أن تزوجت ليبتها ذات نفسه ويشكو إليها ما يجد من فشل في الحب وما يلقاه من معاكسات الأقدار وسوء معاملة الناشرين

وأخيراً ، رأى لحاله صديق له من أصحاب المكتبات ، فأخذ على عاتقه نشر مؤلفاته . و د

ذلك الحين بدأ « أوتريه دى بلزاك » يصعد سلم الشهرة والمجد الأدبي في سرعة فائقة، واشتد الأقبال على مؤلفاته . وقد بلغ عددها حوالى المائة خلال السنين العشر التى عاشها بعد ذلك حتى توفى يوم ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٥٠ غير متجاوز إحدى وخمسين سنة

ومنذ سنتين احفلت فرنسا بمرور ١٠٠ سنة على وفاة بلزاك . وأجمع النقاد الفنيون فى العالم كله على أن إنتاجه الفكرى الفزير خلاق به أن يسلكه فى عداد عباقرة المفكرين والكتاب العالميين وما زالت المسارح فى فرنسا وغيرها تتسابق الى إخراج مسرحياته الشعرية والنثرية ، كما أن كتبه ورواياته العديدة المفيدة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية وطبع كل منها عشرات المرات . ويؤخذ من إحصاء رسمى قامت به الحكومة الفرنسية أن مؤلفات بلزاك ضلت تعدأوسع المؤلفات الفرنسية انتشاراً حتى قبيل الحرب العالمية الأخيرة

ومن بين رواياته الرائعة الأخرى : « المهزلة البشرية » و « الحياة العائلية » و « الحياة الباريسية » و « الحياة العسكرية » و « البائع المتجول » و « المحرم النبيل » و « وبدء الحياة »



خان فوكير

مدام فوكير امرأة مجوز تدير في باريس خاناً متواضعاً منذ أربعين سنة ، في شارع هادى .
يقع بين الحى اللاتينى وحى سان مارسيل . وفي هذا الخان يقيم أشبات من الخلق ، بين ذكور
وإناث ، وشباب وشباب ، ولكنه ظل طيلة هذه الأعوام بمنجاة من قالة السوء ، فهو خان
طيب السمعة يحترم كل الاحترام معروف بالصيانة والاحتشام ، وإن كان بعيداً بمسواه المادى
عن ترف الحياة وأبهة المظهر

هذا من حيث المبدأ ، أما من حيث الواقع ، فقد سلفت من الأعوام ثلاثون سنة لم يقم
بالخان فيها شاب أو شابة يصلح موضوعاً لقالة أو مظنة سوء ، إلا أن تكون أسرته من رقة
الحال بحيث لا نتيج له من المعاش ما يربأ به عن هذا الخان الرقيق الحال

والدار التى يشغلها الخان مملوكة لمدام فوكير ، وتقوم في نهاية شارع « القديسة جنيفيف
الجديدة » حيث يهبط مستواه يلتقى بشارع آخر هبوطاً مفاجئاً يجعل صعود الخيل وهبوطها
أمراً نادراً . الأمر الذى يضئ على البقعة هدوءاً شاملاً قابضاً للصذور ، فلو عبر بها امرؤ خلى
القلب انقفاً لوجد هذه الكتابة صدى في نفسه كذلك الصدى اللازم لصدور أهلها المنقبين بها
على الدوام . فناهيك بمكان يعد فيه مرور عربية حدثنا يذكر ويروى ، وتبدو فيه الجدران
السالحة مريدة الوجه كأنها السجون . فهذا الحى الصغير الحامل لا ينازعه في باريس حى آخر
في صفات الكتابة والمثل وركود الحياة

ويقوم بناء الخان بأدواره الثلاثة وراء حديقة صغيرة تفصله عن الطريق العام . ونوافذه
لها مصاريع خشبية ذات نقوب كتلايا النحل فيما خلا الطابق الأرضى فنوافذه مزودة بفتحات
متقاطعة من الحديد . وخلف البناء فناء صغير ترتفع فيه في ألفة عجيبة صنوف الخنازير والدجاج
والأرانب . وفي مؤخرته مخزن لحشب الحريق

والطابق الأرضى يتكون من مدخل تضيؤه نافذتان تطلان على الشارع يؤدي الى قاعة
المائدة التى يفصلها عن المطبخ تحويف السلم الخشبي . والواقع أن المدخل يقوم مقام قاعة الجلوس
وهو مكان لا يضارعه في كآبته مكان آخر من حيث الشكل والضوء والأثاث

أما قاعة المائدة فأثاثها عتيق وأدواتها ناصلة الصلاه وخزفها من أحسن الأنواع . ولو أننا
تحرينا الدقة في بيان مقدار بلى الأثاث لملنا هذا الوصف على إطالة لا يتيسر الاخص منها الى
لباب قصتنا

وتأخذ هذه القاعة أهبثها - النفسية طبعاً - حين تؤذن الساعة السابعة صباحاً بظهور « هر » لمدام فوكير فافزأ هنا وهناك يلحق بلسانه اللين من الفئجان المد لهذا الزيل أوداك . ثم لا تلبث الأرملة فوكير أن تصرق بطلعتها وعلى رأسها طاقيتها المصنوعة من التل ، تلك الطاقية التي تلو طاقية أخرى ليست من التل ولكن من الشعر للستار ، وهي تحظر في القاعة مجررة خفها المتيق ، ويتقدمها أتف كتفائر اليبفاء بتوسط وجهها أكل عليه الدهر ولكنه لا زال سميئاً متناسباً في ذلك مع جسمها المكثّر ، وشخصها على الجملة يحكي في صورة حية هذه القاعة التي ينم كل ما فيها على البلى والأفول . فلا نمدو الحق إذا قلنا إن مدام فوكير تمثل الحان والحان يمثلها أصدق التمثيل ، فهي مصصها الذي يتدل الى ماتحت ثوبها ، وثوبها الذي نال منه القدم بشكل واضح حتى تغير لونه ، صورة صادقة تلخص لناظر قاعة الجلوس وقاعة المائدة بما فيها من تنافر ويغال مع هذا - والهمدة في هذا القول على النزلاء - إنها امرأة طيبة السريرة رقيقة القلب ، ولعلهم يرثون لها ويظنون بها الاملاق لأنهم لا يسمعون منها إلا شكوى القاعة فيظنون حالها كحالهم

وما من أحد يدري من كان زوجها المسيو فوكير . فهي لا تتحدث أبداً عن المرحوم . وإنما تمكثني إذا سئلت كيف أضاع ثروته بأن تقول إنه فسدّها في نوازل الأيام . ثم تثني بوصف قسوته عليها قسوة جفت دموعها ولم تترك لها فضلة من الشعور بالألم حتى تتأفف من عبثها النكد الذي لا مورد له إلا هذا الحان الكثير النفقة القليل للوارد

ومنى سمعت الخادم السمين « سلفى » التي تقوم بأود الطبخ وقم أقدام سيدتها ، سارعت الى تقديم الاططار للنزلاء . وعددتم وقت حوادث هذه القصة سنة ١٨١٩ سبعة وكان الطابق الأول يضم جناحين تشغل مدام فوكير أقلهما حظاً من أسباب الراحة وتشغل الآخر مدام كوتير وريبيتها الشابة فيكتورين تايفير وتدفعان مما ١٨٠٠ فرنك سنوياً أما الطابق الثاني فيشغله موظف شيخ يدعى بوايريه وعملاق في الأربعين يصبغ سسوائفه ويزعم نفسه تاجراً واسمه فوتران

أما الطابق الثالث فيه أربع حجرات مؤجرة منهما اثنتان ، وتشغل إحداها عانس مى الآمنة ميشونون ، ويشغل الأخرى شيخ طيب القلب ينادى باسم « الأب جوريو » ! والمجرتان الأخريان تؤجران للمبارتين الذين لا يستطيعون دفع أكثر من خمسة وأربعين فرنكاً في الشهر نظير النوم والطعام . ويشغل إحدى هاتين الترفتين في الوقت الحاضر شاب من أبناء الريف من قرية من أعمال مقاطعة انجوليم آتى الى باريس لدراسة القانون وهو سليل أسرة نبيلة أخى عليها الدهر ولكنها تتحمل ألواناً قاسية من الحرمان في سبيل توفير مائة فرنك شهرياً تدفعها الى يد هذا الشاب ليدبر بها أمر مقامه وتعليمه وغذائه وكسائه . وذلكم هو « ابجين دى رستنيك »

وفوق الدور الثالث حجرة الفيل وخزانتان صغيرتان هما مخدعا الخادم « كريستوف » والطباخة « سباني »

فكان مجموع نزلاء الفندق القيمين فيه سبعة ، يضاف اليهم « منقسبون » من الخارج يتناولون وجبة العشاء فقط وعدتهم عشرة . لهذا تحمل قاعة الطعام في المساء بعدد كبير يتجاوز عدد الطاعمين ثمانية بما فيهم ربة الخان مدام فوكير فتبدو القاعة كأنها حجرة طعام عائلية تقوم فيها مدام فوكير بدور الأم . فالنزلاء يجلسون الى المائدة بملابس المنزل وفي أرجاءهم النعال الخفيفة ، ويتبادلون التعليقات وأطراف الحديث بصورة ودية لا كلفة فيها

ولسكن أزياء هؤلاء النزلاء لا تتأخر بينها وبين الخان وأثاثه الزرى . فالرجال عليهم حال الريدنجوت التي خف لونها ورث أديمها حتى ما تدرى لرقبتها لونا مينا أو صنفا من أصناف النسيج معروفا بذاته على وجه التحديد . وأحذية الخروج ليست أحسن حالا من الحلل فهي بحالة ليس لها مثيل في غير ذلك الحى الفقير من باريس إلا مطروحة على قارعة الطريق ونياب النساء ليست خيرا من ثياب الرجال بكثير ، فهي تشكو كثرة ما قلبتها الأيدي لتبديل صورتها أو إعادة صبغها بعد أن حال لونها مرات ومرات

وإذا كانت هذه هي الثياب ، فإكانت الأجساد التي تكتسى بها أحسن حالا : فهي أجساد مروقة ترك عليها صراع الزمن آثاره واضحة من هزال أو نفخ . فكل واحد من هؤلاء يعكس بشخصه مأساة حية بلغت ذروتها وتمت فصولها ! وهي في طريقها الى الذروة والتام . مأسا ليست كذلك التي تعرض في ملاعب التمثيل ، فإن سوء طالعها حرمها لذة الصناعة وتزويق التأليف المحبوك والخراج المنمق . إنها مأسا كئيبة تعيش حاضرة الرأس لا يلتفت اليها أحد

ان نزلاء خان فوكير هم أليق الناس وأولاهم بالحياة في ذلك الخان لأنهم مثله من نفايات الحياة فن هم هؤلاء النزلاء على التحقيق ؟



نزلاء الخان

هذه الأنسة « ميشونو » التي تقدمت بها السن حتى نالت من نور عينيها ، فهي تجعل فوقهما وفاة من نسيج أخضر اللون يحسك برأسها سلك من الحديد ، فلو رآها ملك من ملائكة الرحمة لولى منها فراراً ولا مثلاً منها رعباً . أما شملتها ذات الشراريب الضويلة فيخيل اليك أنها تفعلى كتنى هيكل عظمى أو مومياء ، لجسمها من التحول وبروز العظام بحيث يبدو للناظر بقايا جثة بشرية عدا عليها الموت من سنوات . وإنها لحيرة لله قول أن تدرك كنه ذلك الدائل الخفى الحفى الذى أتى على علامات الأنونة فيها فليس فى جسدها استدارة واحدة من تلك الاستدارات التى تتميز بها أجساد النساء ، وإنه ليبدو أنها كانت يوماً ذات صباوجال فأين آثار هذا الجلال إذا كان الصبا قد ذبل وزال ؟.. هل أتى عليه البخل أو الطمع ؟.. وأى النساء هى ؟.. هل كانت حياتها قصة حب قوى ؟.. أو هى لم تعرف الحب ؟.. وهل كانت تتميش من الانحجار بالثياب السمطة والثفايات البالية ، أو هى موسى لم تعد لها على الزمن سوق نافقة ؟..

من يدري ؟.. كل الذى تراه العين منها هو نظرتها الباردة الجلمدة التى تسرى لها فى العروق رعدة ، ومعارف وجهها التى يتوجس الانسان منها فتأخذ نبرة عامضة . أما صوتها فله نبرة حادة عالية كنفيق الضفدع فى بركة غاش منها الماء . وهى تزعم أنها كانت ممرضة كنيخ ثرى أوصى لها بمئاش سنوى قدره ألف فرنك ولكن ورنته يماطلونها دائماً ولا تجدد فى طاقتها ما تدفع به عن حقها أمام هؤلاء الأقوياء

وندع الأنسة ميشونو لتنتظر فى أمر السيد « يواربه » فن هو السيد يواربه ؟ انه ضرب من ضروب المخلوقات الآلية . انه انسان آلى يتحرك كما تتحرك الأشباح ، ففيه هزال الأشباح وصمتها وكآبتها ، وفوق رأسه قبعة عتيقة وفى يده عصا لها رأس مكورة من العاج المصفر يقبض عليها بأطراف أصابعه وذبول سترته الطويلة الرأسمة تمتبثها الرياح وساقاه الهزيلتان تتخبطان فى مشية كمشية السكران ، فإذا تأملنا صدره الفينا قيصاً أبيض قدراً فوقه صدار أبيض يبارى القميص فى التذارة وتلوها جميعاً عقدة تلف حول عنق هو أشبه الأشباء بنقى الديك الرومى ! أما سرواله فهو ضيق ولكنه رغم ضيقه يبدو مضروباً على هباء وقضاء ! فن يراه لا يخطئ أن يتساءل من أى سلالة غربية هو وأى عمل مرهق أضناه إل هذا الحد وأى عاطفة مشبوبة أكلت جسمه حتى صار إلى هذا التحول الذى لو جرت به ريشة رسام كاريكاتير لكان من المبالغة التى تحمل على

عمل التهويل ... ولا يمكن أن يتصور الانسان لهذا المخلوق عملا يليق به من وظيفة في وزارة الملك يختص فيها بحسابات آلات الاعداد والعاملين عليها وما يلزم لها من حبال وشحن وما إلى ذلك من أئمة سود وسلال تجمع فيها الرؤوس المقطوعة . أم لعله يعمل جانياً للمكوس على باب للذبح العام لماشية باريس ...

وهما يكن من أمر مهنته الحقيقية فالرجل يبدو لأول وهلة بنلا استنفدت قواه كثرة العمل في خدمة الدولة . فهو غاية من غايات الحياة الاجتماعية . انه عامل من الذين يسفرون كخشب النبط لاستخراج الكستناء من النار ، ولكنهم يعيشون ويعتنون وهم مجهولون مجرد أسماء أولئك الذين يحرقون لهم أصابعهم لكي يخرجوا لهم الكستناء . وباريس العظيمة تعفل بهؤلاء من دون أن تدري عن آلامهم شيئاً . ولا غرو ، فباريس يحرقهم ليس لمدة آخر ولا لغوره قرار . وفي هذا اليم المزمى تيارات خفية ومخلوقات لا حصر لها ، فهما قنشت فيه لاشك واجد جديداً يروعك بنفاسته أوجبه وبشاعته: فقه الآله والأصداف وفيه الأزهار والأخبط وفيه القيران التي لم يعلم بها بشر كما أن فيه حطام آلاف السفائن التي اختصرت لها الأنواء رحلتها إلى مرناً بعيد

وخان فوكير بما فيه من الآنة مونوشو والسيد يورايه كهوف من كهوف بحر باريس المجهولة يحفل بمخلوقات مما تعيش في الأعماق البعيدة ليس لها مثيل في البشاعة وغرابة التكوين



ولكن في هذا الكهف الفائر وبين هذه المخلوقات المنفرة تبرز شخصيتان بينهما وبين سائر نزلاء الخان تباين كبير

وأول هذين ، أو أولاً على الأصح ، هي « فيكتورين نايفار » ، وانها فتاة في عتبة العمر على عياها ذلك الشحوب الذي يتميز به من أصابعهم علة الصدر ، وهبيض من عينيها نظرة حزينة تنهي عن أسى مكنون وهم مقيم ، وفي قائمتها تلك الرقة المرضية التي تدل على تكوين ضعيف لا قبل له بمواجهة أنواء الحياة . وهي بهذه الصفات تشارك في الجو العام الذي ترك طابعه فوق كل ما يتصل بخان فوكير ونزلاته . ولكن ما في وجهها وصوتها من صبا وفي حركاتها من نشاط وحيوية عصبية كان يتأى بها عن ذلك الجو ويفردها بمزية خاصة بها

ولكن هذا الصبا إذا دقق المرء النظر فيه وجده أدعى إلى الأسى من الشيخوخة القانية فقد ذوت أوراقها تحت ضربات الجفاف العاطفي والأبوى حتى صارت كالنبات الذي تقل من تربة إلى تربة فأعوزها الجلو الصالح للحياة والنماء . بيد أن الناظر في عينيها الرمادين الضربان إلى السواد يرى فيهما تلك الوداعة الناجمة عن ذلك التدن الشديد وذلك الاذعان الذي يورنه الايمان من يتصمون به حين تحز بهم مشكلات الأمور . وقد أفادت هذه الرقة حتى افند بدت بالقياس إلى المحيط الذي تعيش فيه كالزهرة الجميلة في خربة مملوءة بالغبغبي . ولولا شحنها الدائم

لكانت جميلة اطلاقا . ذلك أن السعادة تضي على المرأة جمالا سلبتها إياه مقاييس جسمها أو معالم خلقتها ، لأن جمال السعادة هو الوضاعة الشاعرية وهالة الأحلام التي تجمل من المرأة شمة تطيف بها فراشات القلوب . فلو أن فرحة الرقص في ثوب جميل صبغت وجنتها الصفراء بحمرة الحماسة والسرور ، ولو أن كيوييد أضاء بعشمله السحري ومضات الحب في عينيها ، إذن لكان في مقدور فيكتورين تايفير أن تبارى أملح الفتيات وتنازعها قصب السبق في مضمار الجمال . ولكن المسكينة تفتقر إلى أهم مقومات الجمال في المرأة وأهم مزايا حسناتها إلا وهو الثوب الملبح ، والحناء الرشيق ، وخطابات الغرام الوردية اللون المعطرة الأنفاس

فمن هي ؟ .. إن والدها لديه من الأسباب ما يحمله على عدم الاعتراف بها . وهو ثرى واسع الثراء ، ولكن قلبه مثل ذهبه برودة وجودا . وهو يختم شقيقها بالرتاية ، ويشاركه ماله ، وهو مزعم أن يورثه إياه كله أما هي فلا يريد أن يراها ولا أن يسمع عنها ، ولا يخرج لها من ماله الضخم الا عن خبث فرنكا في الشهر

ولما كانت والدتها من قريبات بدمام كونير فقد تبنيتها هذه السيدة بعد وفاة والدتها كبيرة القلب بما أقيمت من عنت زوجها وسوء معاملته . ولكن السيدة الطيبة القلب لا تملك الا معاشا ضئيلا عن زوجها ، فاذا انتقلت إلى جوار ربها فمذا الذي يرضى تلك الفتاة التي لا نصير لها في هذا العالم الذي يناسبها العدا ؟

والسيدة الرحيمة تصحب الفتاة إلى الكنيسة صباح كل أحد ، وتأخذها الى كرسي الاعتراف مرة كل أسبوعين ، لكي تظل على اتصال دائم بمنبع الغراء المستمد من ممارسة طقوس الدين وتقوى الله . فالإيمان بعالم آخر هو المثل الوحيد لأولئك الذين خاب أملهم في الحياة الدنيا . وقد أفلحت هذه الحطة في إضفاء الرقة والوداعة على الصبية البتيسة ، بحيث لم تكرر والدها رغم ما أتاها في حفاها ولا زال لديها أمل في استمالته . فهي تذهب مرة في كل سنة لتلقى ما رصده لها من مال وتحاول عبثاً أن تقابله لأنه يقفل دونها بابه . وليس أخوها خيراً من أبيها . ومع ذلك فهي تذكرهما في صلاتها اليومية وتدعو الله أن يرقق قلوبهما من غير إدانة لها أو ملام

ولم تكن مدام كونير ودمام فوكير تتعرجان في صب الامانات على الولد والأخ ، فإن جرهما كان يبدو للسيدات أنقطع من أي وصف ورد في القاموس ، فاذا سمتهما فيكتورين أجايتهما بعبارات رقيقة لئنهما عن هذا الاقتراع ، فتقم تلك العبارات على السمع كنتوح الحمام الذي مهما صدر عن أم شديد فهو لا يخلو من اللطف والمحبة ولا يمكن أن يصدر عن حقد أو بغضاء

هذه فيكتورين تايفير . فمن هو الشخص الآخر الذي يشاركها في المباشرة لسائر نزلاء الحان؟ انه ايجين دى رستنيك . الفتى الرقيق الأبيض الوجه الأسود الشعر الأزرق العنين . وإن سيماء وآداب سلوكه انهم بوضوح عن أصل عريق وتربية حسنة . وهو وإن اجتهد في الاقتصاد في نفقة ملابسه إلا أنه يحسن أن يبدو في بزة حسنة وأناقاة لا بأس بها إذا حضرت المناسبات التي

تستأهل هذه العناية . ولكنه في الأحوال العادية يرتدى حلة قديمة ويستهل حذاء بايت جدته
وخصف نعله



وإلى جوار هذا الشاب وتلك الشابة يبرز شخص آخر ليس من طراز بقية الزلاء . انه
« فوتران » . وهو رجل هائل الجثة في الأربعين من عمره يصبغ سوافه ويبدو عليه المرح
الشديد والاقبال على الحياة . وله كتفان عريضتان وصدر واسع وذراعان فيهما عضل كبير
وتنهيان براحتين كبيرتين يعلو أصابعهما شعر أحمر كثيف . وما يرسم على وجهه الضخم من
غضون مبكرة أما يدل على خشونة تنفيها عنه معاملة الهينة لسائر الناس فهو لطيف المعشر خديم
لا يسمع بشيء فسد إلا بادر إلى اصلاحه بيديه فهو على ما يلوح ذو خبرة بجميع الحرف من
الملاحة إلى أقاليم الريف إلى ادارة الأعمال وشئون الاقتصاد ودقائق القانون وكبار البيوتات
ولوائح السجون ! . وإذا ضاقت بأحد معارفه الأزمات بادر إلى معوته وكمن مرة أقرض
مدام فوكير وتزلاهما مبالغ لا بأس بها . ولكن ما من أحد كان يظلمه حقه أو يتكأ في
سداد القرض لأن له نظرة مخيفة إذا جد الجد ، فله عينان ثاقبتان تنفذان في حنايا الصدور
وتخترقان الحجب وتكتشفان ما ينطوى عليه الناس من مشاعر وأفكار

وكان من عادته أن يخرج بعد الافطار ليعود ساعة العشاء ثم يمتحن طول السهرة ليعود حول
منتصف الليل فيدخل بمفتاح خاص أعففته به مدام فوكير دون غيره من الزلاء . فهو الوحيد
من بينهم الذي ينبسط معها ويداعبها ويتناديها يا أماء ويحيط خصرها الضخم بذراعه . وكانت
العجوز تظن هذا شيئاً يسيراً على أى انسان ولكن فوتران دون سواه هو الذى يفكر فيه .
مع أن الواقع أن فوتران العملاق وحده هو الذى يستطيع أن يقوم بهذا العمل لعنول ذراعيه .
وهو ينفرد بميزة أخرى هي بذله خمسة عشر فرنكا كل شهر نظير الفهوة وكأس الكونياك
الذين يتناولهما يوماً بعد العشاء . وفي بعض الأحيان كان يطلق لسانه العنان فيكشف عن
جانب الأوضاع المقلوبة في الدولة والمجتمع في أسلوب ساخر لاذع ينبى عن حقد لديه دفين على
الدولة وعن سر لديه مكنون يحز في نفسه وإن كان يطويه ويحرم على إخفائه

ولما كان الجمال والقوة هما أشد ما يجذب التفات المرأة ، فلا عجب أن نجد فيكتورين تايغير
تقسم نظراتها المختلطة وخواطرها الخفية بين هذا الكهل العملاق وذلك الشاب الرقيق النحيل .
فهى مشغولة بالقوة والجمال ولكن لم يكن فيها ما يلفت صاحب القوة أو صاحب الجمال ، مع
أن مفاجأة من مفاجآت القدر كفيلة أن تبدل حالها بين عشية وضحاها فتجعل منها قبيصة تزنو
اليها الأبصار طمأناً في ثرائها المريض . ولكن القاعدة الثابتة ان كل تزيل كان لا يغير قصة
سائر الزلاء نفقه كاملة ، لأنه لا يمه إلا مشاكله الخاصة ومتاعبه الشخصية

مجموعة من المتفلسين بأعباء الحياة ونوازلها ، لم يكن فيهم شخص فرير العين بوجوده في ذلك
الحان إلا صاحبه مدام فوكير ، فهي ترى فيه ملكيتها الخاصة ، ولا تبصر فيه عيباً ، كأنها
الأم التي ترى وليدها أوسم خلق الله وإن كان انصافه بالجمال ضرباً من ضروب المحال
وان أنعم المنازل وأحفل المجتمعات بالأسى والشفاء لاتقدم فرداً منها يكون أضحوكة لسائر
الجماعة . ولم يكن خان فوكير بالشاذ في هذه القاعدة . وكان أضحوكة المستمرة المستمرة هو
ذلك الشيخ الهادي . انقضى الذي ألف الجميع أن يدعوهُ « الأب جوريو »



شيخ في السبعين

والاب جوريو شيخ ناهز النسمة والسنين من عمره ، اعتكف في خان فوكير منذ سبع سنين أى منذ سنة ١٨١٣ بعد أن صنى أعماله واعتزل التجارة . وقد شغل أول ماشغل ذلك الجناح الذى تشغله الآن مدام كوتير وريبيتها فيكتورين ، وكان يدفع اصاحبة الحان مائة فرنك عن كل شهر ، فقد كان يبدو في مظهر الرجل الذى لا يدقق فيما ينفقه من مال لأنه تعود البسط في النفقة ولأن راحته الشخصية أعز عليه من درهم يدخره أو درهمين . وقد رأت فيه مدام فوكير في ذلك الوقت رجلاً ساذجاً يسهل استغلال طبيته - والعطية هنا معنى من معانى الففلة وقد حل جوريو معه حين نزل بالخان عدداً وقيراً من الملابس الثمينة من مختلف الأنواع تظهره بمظهر الرجل المبسور الذى لا يضمن على نفسه بشىء من متاع الحياة ومتاعها من أغاني حانوته . وقد راق مدام فوكير في هذا الجهاز الفاخر ثمانية عشر قيصاً من الحرير الرقيق تزينا حين يلبسها تلك الديابيس المناسبة الكبيرة الحجم . وكان الأب جوريو في ذلك العهد لا يلبس الصدر الأبيض إلا مرة واحدة يبدو به مختالاً تتراقص فوقه سلسلة غليظة من الذهب فوق بطن مكورة تنقدمه في مهابة وهو ينقل خُطوه بخيلاء . وفي جيب الصدر علية نشوق من الذهب الخالص بداخلها خصلة من الشعر تسمى بمقامرات عاطفية تعلق بمظهره الوقور . إذا ألمت مدام فوكير في مواجهته الى أنه رجل ذو صوات انتمس ابتسامة مأكرة تنم عن شعوره بالرهو لهذا الاطواء الذى يرضى كبرياه .

أما صوانات جناحه فقد حفلت بتلك التعف القضية النادرة التي كانت يوماً زينة بيته الكبير قبل أن تموت زوجته وتزوج بنتاه وبصبح البيت غير ذى موضوع . وهى أوان ثمينة كانت صاحبة الحان ترمقها بعينين تقدحان بالشرر حين تساعده على ترتيبها وتنظيفها وكان يمتز بها لأنها التذكار الأخير لسعادته المنزلية الفائرة . وقد احتضن ذات يوم أمامها طبقاً ووعاء له غطاء تعلوه حمامتان تبادلان القبلات ، صنعا من الفضة المذهبة وقال لها بتأثر بالغ :

— هذه هى الهدية الأولى التي قدمتها لى زوجتى في عيد زواجنا الأول . غفر الله لها ، فا كان أطيب قلبها ، وكمن من أشياء حرمت نفسها منها لىكى تدخر ثمنها ، وهى بمد في عهد عذرتها . فلا تعجبي يا سيدتى إذا قلت لك إننى أفضل أن أحفر الأرض بأطافرى الناسا للفتوت على أن أفرط في هذه الهدية . وإنى لأحمد الله أن أتاح لى احسناء فهو لى كل صباح في هذا الوعاء الأنيق الذى يصلنى بالماضى السعيد

وكان جوريو إذ ذاك بآدى الصحة متين التركيب رغم تقدمه فى السن ، يقبل على الطعام ويكثر من التدخين بطريقة تباعد بينه وبين الكزازة والتقيير وتزيد صفة البصر التصافاً به حتى بانث مدام' فوكير تنقلب على فراش السهد طامعة أن تخلع عنها اسم فوكير لتولد وهى فى سنها هذه باسم جوريو

— آه ما أحدى أن أتزوج وأبيع الحان وأغدو سيدة معبرة فى الحى ، أنسقط أخبار الموزين ، وأسدى يد المعونة الى المحتاجين ، وأقيم المآدب الأنيقة يوم الأحد ، وأذهب الى ملعب التمثيل على هواى فى مقصورة خاصة دون أن أنتظر التذاكر الخجانية التى يحود بها أحياناً نزلاء الحان

ولم يكن أحد يعلم أنها تدخر أربعين ألف فرنك جمعتها درهماً بدرهم وفضلاً بفلس واكتنفا لا تنقل هذه المزية حين تعلم بهذا الزواج ، فتزى نفسها أهلاله بفضل هذه البائنة الضخمة ، ثم تتجسس راضية مواضع جسمها المكتر كائناً تسونق من آيات الاطراء التى تزفها اليها طباحتها البدنية • سياتى •

وقد ظلت مدام فوكير طيلة الأشهر الثلاثة الأولى تستخدم الحلاق الذى باقى خصيصاً للأب جوريو فى تزيين شعرها ، بل اجتهدت فى رفع مستوى نزلائها مرددة على الدوام أن خانها مؤسسة محترمة لا يئزل بها إلا الناس المعنبرون وأفاضل القوم من الجنسين . فاذا تقدم اليها أحد برغبة الإقامة عندها بدأت بالتدليل على قيمة منزلها بأن السيد جوريو المحترم وهو من كبار التجار ورجال الأعمال السابقين قد فضله بخبرته الواسعة على جميع ماعدها من خانات عاصمة النور

وقد أجدى هذا التهنج الجديد عليها فترأت عندها الكونتس دى لامبوم-سزيل ، وهى عقيلة فى السادسة والثلاثين من عمرها جاءت الى باريس لاتمام تسوية المعاش التى حق لها بصفتها أرملة جنرال مات فى « ميادين » القتال . وقد قدرت مدام فوكير هذا الشرف الذى أتيىح لها حتى قدره فبذلت من جيبها تكاليف مائدة محترمة وخدمة ممتازة سنة أشهر طوال ليكون المكان على قدر المقام ، متفانية فى إظهار عرفانها لجليل تلك السيدة العالاية القدر التى تتلطف فتدعوها « صديقتى العزيزة » ، والتى تفضلت فقدها الى صديقتين جاءتا لزيارتها إحداها بارونة والأخرى زوجة كولونيل . فلما ارتفعت البكافة أفضت مدام فوكير بمكنون رغبتهما الى الكونتس ، فقالت لها الكونتس :

— إنه رجل محترم وفى صحة جيدة ولا زالت فيه بقية صالحة تفر بها المرأة عينا . ولكنى أرى أن تغيرى من زينتك لىكى تكونى أرعى لنظرة وأندى على قلبه

وبعد أخذ ورد صحبت الكونتس مدام فوكير فاتفقت لها قبعة ذات ريش ووشاحاً جبلا وثوباً من آخر طراز . فلما أخذت مدام فوكير زخرفها وازينت راقى فى عين نفسها وتوجهت

إلى الكونتس ترجوها أن تتوسط بينها وبين جوريو ، فقبلت عن طيب خاطر
وخلت الكونتس بجوريو خلوة هدفت منها إلى كسبها لنفسها وأغوائه لحسابها . فلما رأت
منه صدوداً جرح كبرياءها خرجت على مدام فوكير بوجه يحمل أمارات السخط والتأفف !
— لا جدوى من مثل هذا الرجل فهو نفور شحيح له على أمواله عليل ، وفيه فداء :
وتقطع ، ولن تأتيك منه إلا الهموم والتعاب

ويبدو أن ما جرى بين جوريو والكونتس كان من المخرج بحيث لم تطلق البقاء بعد ذلك
معه تحت سقف واحد ، ففادرت الحان في اليوم التالي ، ولكنها نسيت قبل أن تناديه أن
تدفع أجر إقامتها ستة أشهر ، تاركة وراءها ملابس عتيقة لا تزيد قيمتها على خمسة فرنكات !
وشكت مدام فوكير وبكت ولكنها عبتاً بمحت عمن يدهلها في طول باريس وعرضها على
كونتس تحمل هذا الاسم مات عنها زوجها الجفرا صريعاً في «ميدان» الشرف ...

ولم تكن مدام فوكير سوى امرأة ضيقة الأفق لا تحسن تھي الأسباب فيما يقم لها من أمور
ولا تربط بين الملل والتأنج ، فكل اهتمامها منصب على الحوادث ذاتها دون نظر الى مصلحتها
ومسبباتها . ولديها من حب الذات حباً أعشى يتميز به الجهلاء ما يجعلها تحمل الآخرين وزر
ما تقع فيه من إخطاء . فقير غريب إذن حين نيت بهذه الحسارة أن نراها لا تعزوها إلى غفلتها
وقصر نظرها بمواقب الأمور ، بل تحملها على كاهل التاجر المتقاعد الطيب القلب جوريو فحقت
عليه حقناً شديداً ولا سبها لأن آمالها فيه قد خابت ، وقد كانت لعمر الحق آمالاً كبيراً هونت
عليها أن تنفق ما أنفقت في زينتها وأناقته مائدتها ومائدته تلك النفقات التي ذهبت أدراج الرياح .
بل إنها مضت في حقدتها عليه وكرهيتها له عموماً أبداً مما ذهبت إليه في حبها السابق الخائب .
فحقدتها لم يكن مسببها فشل حبها بل إخفاق آمالها النفعية . ولأنها امرأة نفعية فقد تدبّر عليها أن
تكم عواطفها لأن الرجل تزليها وهي لا تحب أن تضحي بما تحب من ورائه . ولكن صفار
النفوس لا تعدم أبداً وسيلة للإساءة إلى من يضمرون لهم الكيد ، فبدأت بالفناء التوافل المرفهة
التي كانت قد أضاعتها إلى المائدة من أنواع المشهيات . ولكن الأب جوريو كان رجلاً متقشفاً
مغموساً لا يأبه للتعاب في طعامه . فخبه من زاد خير زاد طبق من الحساء وشيء من اللحم
السلوق وجانب من الخضر . لهذا تعذر على مدام فوكير أن تضايقه من جهة جلته . فهدمت إلى
التنديد به من ورائه والنفامز والتهامس عليه والإيحاء إلى سائر نزلاتها أن يتخذوه موضوعاً
لفكاهاتهم وسخريتهم . وقد وجدوا في هذا ما يسليهم فأقبلوا عليه عن طيب خاطر

وبعد انقضاء العام الأول تغيرت عادات جوريو قليلاً ، فبعد أن كان يتفدى أو يتمشى في
الحارج مرتين في الأسبوع أصبح لا يفعل ذلك إلا مرتين في الشهر فزادت فرص تحملها لوجوده
معها على المائدة فلم تحمل هذا المسالك على قلة إيراده عن ذي قبل بل خطر لها أنه إنما تسددها
ليكيدها ويضيقها !

حتى إذا انصرم العام الثاني طلب إليها أن ينقل إقامته إلى الطابق الثاني لكي يسهل بأجر إقامته من مائة فرنك إلى خمسة وسبعين لأنه مضطر إلى الافلال من نفقاته ، فطالبته المرأة بأجر العام مقدماً فقبل الرجل هذا الشرط

ومنذ ذلك اليوم تغير اسمه لديها من السيد جوريو إلى الأب جوريو وكان في مقدور أى انسان يلحظ هذا المربوط في مستوى معيشته ، ولكن الحقيقة لم تكن في مثل هذه السهولة تفصيلاً ووضوحاً . فالأب جوريو رجل كتوم لا يسهل استكناه أسرارهِ . لهذا تضاربت الآراء حول أسباب سوء حاله بعد بصره الأول . فهذا فوتران العملاق الذى جاء إلى الخان في هذه الفترة يزعم أن الأب جوريو يتردد على مصفق العقود ويدخل في مضاربات طمعاً في استرداد بعض ما فقدته من الخسائر التي أدت به إلى الإفلاس . وزعم غيره من الزملاء أنه متبلى بداء الفهار . وزعم ثالث أنه عين من عيون البوليس السرى . وتوهم غيرهم أنه يخيل يقرض المضطرين برى فاحش . وهو على أى فرض من هذه الفروض ليست له في نظرم صورة مشرفة ، وإنما هو مجموعة من الرذائل والمار والضم . ولكنهم كانوا يقبلونه على علاقته لانه مسالم ولأنه هدف صالح انكاثهم إذا ضاقت صدورهم بهوم الحياة

بيد أن أجدر صورة خالها أحد الألب جوريو بالتنويه هي التي توهمتها مدام فوكير . فهو في زعمها - بل في يقينها - رجل ذو ثروة وقوة ولكنه اباحى ماجن له نزوات تنسم بالكذوذ . ولم تكن تعوزها الأسباب التي تبنى عليها هذا الاعتقاد :

فقبل رحيل الكونتس بيضمة أشهر نما إلى سمع مدام فوكير في بكرة الصباح وهي بعد في فراشها حفيف ثوب حريرى يحرر أذيله فوق درج الدار ووقع خطى امرأة شابة تنسل إلى غرفة جوريو التي كان بابها موارباً عن عمد ولا شك . وما لبثت الطباخة السمينة « سياني » أن دخلت عليها بالبنيا البقين : فهذه فتاة أبهى من أن تكون شريفة ، عليها ثياب كتياب إلهات الأساطير ، تراءى إلى تطبخ وتسلها عن جناح السيد جوريو ... فعمدت مدام فوكير وطباختها على الأثر إلى استراق السمع ، فتسقتنا بضم كليات من التودد والملاطفة من هذا الجانب وذلك ، في تلك الزيادة التي دامت بعض الوقت . فلما هبط السيد جوريو لوداع زائرته ، تناولت « سياني » ساتها وتصنعت انهذهاب إلى السوق لكي تتعقب العاشقين ، وفات لسيديتها عند عودتها :

— لا بد أن السيد جوريو على جانب من الثراء فطيم ، حتى يكون في مقدوره أن يعول صاحباته في هذا المستوى .. تصورى ياسيديتي أن عربة من أغم العربات المخصوصية كانت في انتظارها عند رأس الشارع .. فصعدت إليها

فلما كان الغداء ، قامت مدام فوكير بنفسها فأسدات من ذلك ، نفسها النار على البافذة ، لأن الشمس كانت تقع أشعتها على عين جوريو ! ثم ذات له في مودة ظاهرية :

— لك عند الحسان حظوة بإسيد جوريو . وحق الشمس تتحرى أن تسقط عليك .. وإن
ذوقك وإيم الحق لرائع ، فإكان أيتهاها !
فأجابها بزمه خاله الزلاء بموها لتغطية موقفه :
— أنها ابنتي ...

وبعد شهر من هذه الزيارة حظى بزيارة أخرى بعد الظهر ، بملابس الخروج ، فقلتها
الطباخة امرأة أخرى . واستطاع الزلاء هذه المرة أن يتأملوها ، فإذا هي شقراء مليحة رشيدة ،
أوسم من أن تمد ابنة لثل جوريو
وبعد بضعة أيام جاءت فتاة أخرى ، طويلة ، جميلة سمراء ، سوداء الكمر نافذة النظرة ،
وسألت عن السيد جوريو ، فقالت « سيلقى » :
— وهذه ثالثة ...

فلما عادت بعد أيام في المساء بملابس السهرة الكبرى ، لم تعرفها الطباخة ، فقالت مع سيدتها :
— وهذه رابعة ...

وكان جوريو في هذه الفترة لا يزال يدفع مائة فرنك شهرياً كراء لافاته بالخان . فكانت مدام
فوكير لا ترى ما يستدعي الغرابة أن يوسع رجل موسر على نفسه ، وأن تكون له أربع عشبات
من الصبايا أو خمس ، وكانت تعجب بلباقته إذ يزعمهن بناته . ولكنها وجدت في هذه الظاهرة
تحليلاً يرضيها لانصراف جوريو عنها رغم توددها إليه ، يد أنها لم تستطع اغضابه ، ولم تأفف
من زيارة صاحباته له في الخان . حتى إذا هبط بالكراء إلى خسة وسبعين فرنكاً ، فزتها الفيرة
على سمعة الدار ، وواجهته بالتفريع عندما رأت احداً من تهبط من حجرته ، فقال لها الشيخ :

— هذه ابنتي الكبرى

— بتك ؟ وهل لك ست وتلاثون بنتاً يا رجل !

— بل اثنتان فقط

... فلما انتهى العام الثالث ، صعد جوريو طابقاً آخر ، فسكن الطابق الثالث ، هاجلاً بالكراء
إلى خمسة وأربعين فرنكاً في الشهر ، وأقلع عن التدخين ، وقطع راتب الحلاق مستغنياً عن
تصفيف شعره وصباغته ، فبدأ زرى الهيبة . فلم يعد لدى مدام فوكير شك في أمره : انه شيخ
حطيمه الرذائل ، ولم تعد في هيبة قدره على مقاومة آثار فسوقه لولا العقاب التي يطالجهما بها
الطبيب ، وأما لون شعره المائل الضارب إلى الخضرة فيرجع إلى افراط الشيخ في الشهوات ،
وإلى القويات الكيميائية التي يثار على تماطيلها ليستعين بها على ذلك الافراط

والحق أن هيئة الرجل ورائته النفسية والجسدية كانتا تبرران هذا الاعتماد . فهو ، حذر من
سوء إلى أسوأ . وملابسه تبلى ولا يبدلها ، وماساته السابقة وسلسلته الطويلة اختمت كلها
تباعاً . وتدهورت صحته تدهوراً قظيماً ، فبعد أن كان يبدو في الأربعين وهو في الثاية والستين

صار يبدو في السبعين على أقل تقدير بعد أن ذهبت عنه آخر آثار تلك الضررة التي كان يتميز بها وجهه ، وخبا ضياء عينيه حتى حال لونهما من الزرقة إلى الخضرة الباهتة ، واحمرت جفونه حتى غدا يثير الشفقة إذا لم يثر الاستمزاز

وذات يوم انتهزت مدام فوكير الفرصة ، وقالت له في قالب الدعابة :

— أرى بناتك قد انقطعن عن زيارتك هذه الأيام

فانتفض الرجل كمن أصابته طعنة سيف ، وقال بصوت مختلج :

— بل يأتين في بعض الأحيان

فصاح الزلاء من الطلبة ضاحكين :

— ألا زلت تستطيع رؤيتهن من حين إلى حين ؟ مرحى مرحى أيها الشيخ !

ولكن الشيخ لم يسمح لمقالوا ، لأنه عاد إلى أحلام اليقظة التي يعمش فيها ، فيحبسها من

يراه حالة من حالات البلاء ... فما من أحد كان يصدق أن هؤلاء الفتيات بناته ... بل كانوا

جيماً على رأي مدام فوكير في أنه لو كانت له بنات على هذا الثراء الذي يدين به في زيارتهن السابقة

له ، لما اضطر إلى البقاء في هذا الحان على هذا الوجه الزرى ، وبهذه الملابس الخلقية

وكيف كان يمكن التحقق من كنه هذا الشيخ ؟ ان للسنين من الزلاء لا يفادرون الحان

ولا الحى ، فهم فيه كالمحارات في أسدافها . والشبان منهم ينسون الحان ومن فيه — بما فيهم

جوريو — متى خرجوا إلى أفق باريس الرهيب .. فلم يمن أحد بالسؤال ، ولو سألوا لعرفوا في

يسر أن جوريو كان من تجار الدقيق وضاع الاطرية (الشعيرية) الكبار ، وأنه جمع ثروة

مائلة ، وأن له بنتين حقاً من أعلى السيدات في باريس مكاناً وأعظمهن جاهاً

وعلى هذه الحال ، حلت سنة ١٨١٩ وقد قر في الأذهان أبعد الأوهام عن الحى في شأن

هذا الشيخ المسكين ، فهو عند الكافة لم تكن له زوجة ولا ولد ، وإنما هو عزب حطته الشهوات

وعاقبه الله على القسق والمجون بسوء الحال والمآل ...



ليلة المرقص

سلخ ايجين دى راستياك عامه الأول فى باريس كما ينتظر من شاب ريفى مثله أطلق له العنان فى عاصمة النور ، فالدراسة لا تقتطع من وقته شيئاً كثيراً لأنها فى الغالب مداخل ولمع تمهيدية لـ علم القانون ، فأمامه متسع من الوقت تتزاحم عليه الشواغل إذا أراد أن يعرف جميع وجوه الحياة فى العاصمة فيزور مسارحها وملاهيها ويطوف بمتاحفها ومعاهد الفن فيها ويتعرف الى لغة الدماء وتقاليد العلية

وهكذا بدأ ايجين بالاعجاب بالمربات الفاخرة التى تترى أمام عينيه فى الشاترليزيه ، ولكن الاعجاب - اعجاب المحروم - انتهى الى نتيجة الطبيعة وهى القبلة والثنى والحسد فلما عاد بعد هذه السنة الأولى الى قريته كان قد بلغ هذه المرحلة الأخيرة ، مرحلة الثنى والحسد والتعلق بمظاهر الترف والأبهة ، وقد فارقت سذاجة الريف وبساطته وقناعاته ، وصار يضيق بالعيش الضئيل الذى تعيشه أسرته على غلة أرض لا تزيد على ثلاثة آلاف فرنك سنوياً . وكان يشعر أن مستقبل أسرته الكبيرة ذات الاسم النبيل والدخل الضئيل متعلق بمستقبله الشخصى الى حد كبير . وكان هذا مضافاً الى تفاصيل كثيرة من دلائل الضيق المالى كشف لعينه عنها القناع بعد تلك السنة التى خبر فيها الحياة فى باريس - كانت هذه الدلائل دافعاً إضافياً له على الاعتقاد بأن أمامه أمراً واحداً لا يحصى له عنه : هو النجاح الباهر السريع فى الحصول على مركز ممتاز وجاه واسع ، حتى هذا القاب الريفى شملة متفدة من الطموح وكان الفنى كسل ذى همس كبيرة لا يريد أن يدين بنجاحه لشيء عدا همته ومواهبه . بيد أنه تعلم من السنة التى قضاها فى باريس أن المواهب وحدها لا تنهب بصاحبها بيتاً فى مضمار النجاح الاجتماعى . وتعلم أيضاً مبلغ ما للفرأة من النفوذ والتأثير فى ذلك المضمار ، فعزم على التزود لنفسه بسند قوى يمتد به فى ذلك الكفاح الذى ابتواه

وكان للفنى عمة هى مدام دى مارسياك كانت لها فيها ماضى فى البلاط قدم وعرفت هناك أعظم الرؤوس وأهرق الأنساب . فاتجه الى تلك العمة يسألها المونة . فتثرت كنتاجها من المعارف بين سيدات العاصمة وعجبت أعوادها عوداً عوداً قاسحاً رأيها على أن أضخم هاتيك السيدات لابن أخيها هى الحسبة النسبية « فيكونتس دى بوسيان » حملته اليها خطاباً على الطريقة القديمة توصيها به وتطلب اليها أن تدفع بالفنى فى مراقب الحياة الارستقراطية الاجتماعية فلما آت الى باريس فى مفتتح العام الدراسى التالى بادر بإرسال الخطاب الى فيكونتس

لجاءه جوابها على صورة دعوة الى حفلة راقصة بقصرها في الليلة التالية ، وكان ذلك في أواخر
نوفمبر من سنة ١٨١٩



وفي تلك الليلة أقبل الشاب الى خان فوكبر في الساعة الثانية صباحا ، وكان قد عاهد نفسه وهو
في نشوة الرقص أن يموض هذا الوقت الضائع في اللهو باحباء اليلة ساهراً الى الصباح ليستذكر
ما فاتته من دروسه ، فلما بلغ حجرته نضا ملابسه وأوقد النار ليستدفئ واستعد للانصراف الى
كسبه وقد زودته بهجة اللهو والزهو بدفء من النشاط ، ولكنه واجه الكتاب المفتوح بنظر
شارد لأن أحلاما من نوع آخر كانت قد ستأثرت بلبه رغم أنه .. فقد أدرك من هذا الرقص
الحافل أن الفيكوتنش بوسيان ملكة من ملكات المجتمع الباريسي وأن دارها من أغنى الدور في حي
سان جيرمان ، وأنها باعتبار اسمها وثروتها من أبرز شخصيات الأوساط الارستقراطية .. فأى
حظ موات قد أتاح له وهو الفتى الريفي الفقير أن تفتح أمامه أبواب هذا القصر الكبير وأن
يستقبل فيه بالهطف والتقدير ؟ وأنه لموقن أن هذه الدعوة تعد تكريماً ضخماً لثله فالدخول
الى صالونات ذلك القصر المذهبة شرف عظيم لا يناله إلا الأكفء لمعاينة النبلاء .. وهو
يدري أيضاً أن قبوله في ذلك القصر هو بمثابة تصريح نافذ بالمرور من جميع الأبواب والدخول
الى أرقى البيوتات في الوسط العالي من العاصمة الفرنسية

والحق أن الفتى قد بهر بما رأى فلم يكذب بادل الفيكوتنش بضع عبارات حتى وجد نفسه
غريقاً في خضم من الفاتات الساحرات ، ولم يلبث أن ميز من بينهن شابة فنانة تكفى
النظرة الأولى اليها لانفاء أى شاب صريعاً تحت قدميها ، وتلك هى الكونتس هـ انستازى
دى ريتسو ، التى كانت معروفة بأنها صاحبة أجمل طالعة فى باريس ، فهى طويلة الغامة حلوة
الفسات رشقة الحركة ، لها عبتان سوداوان كبيرتان ، وبد جميلة ، وقدم صغيرة وإذا تحركت
خلتها تتوقد بنار حامية من فرط الحيوية .. وهى الى هذا علة لا عيب فى تكوين جارية من
جوارحها وليس فى امتلائها ما يوحى باتهامها بالبدانة أو الثقل ، وكانت هذه الصورة هى الحلم
الذهبي الذى طالما داعب خيال الفتى جيراستنيك .. وقد احتل حتى سجل اسمه مرتين فى قائمة
مرافقيها واستطاع أن يبادلها بضع كلمات خلال الرقصة الأولى :

— أين ترى يتاح لى أن أراك ثانية يا سيدتى ؟

— فى أى مكان ، فى الغابة ، أو فى المسرح أو فى بيتى

واجتهد الفتى بعد ذلك أن يتقرب إليها بقدر الامكان ، فلما قال لها إنه من أبناء عمومة
الفيكوتنش دى بوسيان وجد لديها اعتمادا يقرب من التهافت لدعوته لزيارتها ، وكانت
ابنساتها ساعة افتراقهما من الرقة والظرف بحيث اعتقد الفتى أن تلك الزيارة أضحت من
الوجبة الاجتماعية حتما لزاما



« دوسم عينه على قفب المفتاح ودقق النظر في الغرفة »

ويمكننا ان نتصور مبلغ الفرحه الضاغية التي استولت على الفتى الذى حقق من الأحلام فى ليلة واحدة فوق ما كان يتمناه فى عام : فقد فتح له بيتان من ارفع بيوت باريس عماداً ، واليقية بعد هذا آتية لا ريب فيها ، ثم هو قد لقي فاتنة أحلامه وحظى منها بما يعلى له فى حبال الآمال فأخذ يتخيل المشاهد بعد المشاهد من مستقبله السعيد حتى نبهته من هذه الأحلام المسولة آهة حرى كآهات محكوم عليه بحمل عبء لا طاقة له به ، آهة سرت فى صمت الليل الساجى فكان لها فى حنايا الفتى الحالم بالسعادة والحب صدى هائل حتى لقد حالها حشرجة النزع من روجل يحنصر .. ففتح الباب برفق ، فرأى فى البهليز خيطاً من النور ينساب من تحت باب الأب جوربو .. وخشى الفتى أن يكون جاره الشيخ قد تقلت عليه علة طارئة فوضع عينه على ثقب المفتاح ودقق النظر فى الفركة ، فرأى - وباهول ما رأى ! رأى الرجل الشيخ الذى خشى عليه المرض منصرفاً إلى عمل إجرامى من واجبه نحو المجتمع أن يتقصى حقيقته .. رأى الشيخ جوربو منصرفاً الى الضغط بكل قوته على فتجان ووعاء من الفضة المذهبة منقوشين نقشاً فاخراً محاولاً أن يحمل منهما سبيكة لا تتميز لها صورة أو نقش .. فلما رأى الفتى ذراعى الشيخ ترتجفان من شدة الضغط قال فى نفسه :

— انه لمس ولا ريب أو هو ضالع مع اللصوص لتصرف ما يسرقون .. أترأه لهذا يتصنع الفقر والبلاهة حتى يخفى عن الناس حقيقته ؟

وعاد الفتى الى ثقب الباب يدقق منه النظر مرة أخرى فاذا الشيخ قد وصل الى مرحلة دحرجه السبيكة فوق المائدة لكى يحمل منها قضيباً مستديراً .. وراعه أن الشيخ الفانى لا يجيد مشقة كبيرة فى هذا العمل ، فهتف الفتى فى عجب شديد وقد رأى نجاح جوربو فى تشكيل القضيب : — انه فى قوة أو غشس ملك يولندا ..

ولكن أدهشه أكثر من هذا الذى رأى من دلائل قوة الشيخ أنه أخذ يتأمل نتيجة عمله بدموع مدرارة تبيل على خديه ! ثم نفخ الشمعة وسمعه يحجن يثن أنبنا شديداً وهو يستلقى على فراشه ثم يهتف بصوت مختلج أجش مسموع :

— يا لطفلة المسكينة

فسبق الى وهم الشاب أن بالرجل مساً ، وآثر أن يكتم ما رأى بعض الوقت حتى يتعذر الحقيقة ولا يتعجل التشهير بجاره السكين ..

وتأهب الشاب للعودة الى غرفته بيد أنه سمع على حين غرة صوتاً غامضاً يشبه خفق الحفاف صاعدة الدرج ، فأرهف أذنيه وتبين بالفعل صوت أنفاس رجلين ، فعجب كثيراً أنه لم يسمع صوت فتح الباب الكبير ولأنه يعلم أن الخادم كريستوف أحكم اغلاق الباب بالزلاج على أثر حضوره ، ثم رأى فى الحال ضوءه فى الدور الثانى فى حجرة فوتران فهبط بضع درجات واسترق السمع وطرق أذنيه رنين تقود ، ثم اطفأه النور وسمع الأنفاس تتردد فى الظلام مرة أخرى

هابطة الدرج ، وفتحت مدام فوكير نافذة مخدعها وصاحت :

— من هناك ؟

فأجابها فوتران بصوته العميق :

— هذا أنا عائداً من الخارج ياماما فوكير ..

وهز الفنى رأسه وقال لنفسه :

— كم فى جوف الليل من أعاجيب ! حقاً أنه ينبغى على المرء أن يفتح عينيه جيداً ليعرف

ما يدور فى بلد عظيمة مثل باريس أسرارها أكثر بكثير من ظاهرها

وهكذا سلبت أحلام السعادة التى ألهمتها لها مدام دريستو ثم سلب الشيخ جوريو بأناته

وعجيب تصرفاته وسلبت الأصوات الخفية فى ظلام المان ما كان يدخره الفنى لتجديد مواد

القانون فى ليله النابضة ، فأوى الى فراشه متمب الأعصاب ونام نوماً عميقاً دون أن يقرأ

حرفاً واحداً



أخبار وأسرار

وفي الصباح التالي كانت باريس تلقها عباءة كنيضة من الضباب الذى يهبط عليها أثناء الليل فى بعض الأحيان حتى تسودها عند الصبح ظلمة حالكة يضل فيها أكثر الناس خبرة بمعالم الطريق ، ويتأخر فيها أشد الناس تدقيقاً عن مواعيد أعمالهم ، فانه يظن أن الساعة الثامنة من الصباح حين تكون فى الواقع قد آذنت بالطهيرة

لهذا كانت الساعة قد بلغت منتصف العاشرة ولم تكن مدام فوكير قد غادرت فراشها . وكان الخادم كريستوف والطباخة البدينة سيانى وقد هما من نومهما متأخرين عن مألوف عاداتهما جالسين يتناولان قهوة الصباح وعليها طبقة سمبكة من القشدة التى اختلسها من اللبن بعد التقديم للزلاء . بعد أن أسرفا فى غلبه بمد ذلك حتى لا تكتشف مدام فوكير أمر ذلك الاختلاس وقال كريستوف وهو يغمس لقمته الأولى فى قذح القهوة :

— سيانى . افد حضر رجلان الليلة للاجتماع بالسيد فوتران مرة أخرى ، فإذا سألناك سيدتنا تجاهلى كل شئ . فهو رجل لا بأس به
— وهل أعماك شيئاً ؟

— أعطانى أول الشهر مائة سنتيم ، ومى قحمة تحمل فى طواياها المقصود منها ، وهو
السكران

— إنه ودمام كوتير هما اللذان لابدققان فبايذلان لنا ، ولكن الباقين يودون لو استردوا باليسار ما يعطوننا باليمين

— وماذا يعطوننا ؟ شيئاً لا يسمن ولا يضي من جوع ! فالآب جوريو أخذ يطللى حذاءه بنفسه طيلة العامين الماضيين . وهو على كل حال خير من يواربه القذر الذى لا يطالبهما على الإطلاق ، فهو يمتنى لو تناول سائل الدهان بدل أن يطللى به جلد حذاءه المتشقق ، وأما الطالب الرقيق فيعطى أربعين سنتيماً لا تكفى لما يستهلك على طلاء حذاءه من القرش ، ثم هو يبيع ملابسه القديمة

— رباه . الساعة قد بلغت العاشرة إلا رباعاً ، فهامى ساعة الكنيسة تدق

— وما الضير ؟ لقد خرج الزلاء جميعاً . أما مدام كوتير ورببتها فضنا الى الكنيسة لحضور قداس الساعة الثامنة فى بيعة القديس ابتيان . وأما الأب جوريو فخرج متأجلاً شيئاً فى لفافة . وأما الطالب فلا يعود إلا عند انتهاء محاضراته بعد العاشرة . وقد رأيتهم جميعاً يخرجون

وأنا أكس السلم ، وقد أصابني الأب جوريو بصدمة شديدة بالذى كان يحمله ، فهو شيء صلب كالحديد . بالرجل المسكين ، فهم لا يتركونه في سلام مع أنه خير منهم كاهم مجتمعين . وهو إذا كان لا يعطيني شخصياً شيئاً ذا بال ، فالسيدات اللاتي يعنني اليهن على جانب كبير من الراجاه وينفحنني هبات كبيرة

— أتعي أولئك اللواتي يزعمهن بناته ؟ إن له منهن حفنة كبيرة

— لاني لم أذهب أبداً سوى الى اثنتين هما بعينهما اللتان تأتيان الى هنا

— هذه سيدتنا تتقلب في فراشها ، وستقيم الدنيا وتقمدها فن الحير أن أذهب اليها ، فخذ بالك من الابن واحذر أن تميت به المرة

وصعدت سبلبي الى سيدتها التي ابتدرتها بقولها :

— ما هذا ياسلبي ؟ العاشرة إلا ربها ؟ كيف تركتني أنام الى هذه الساعة ؟ إن هذا لم

يحدث لي من قبل . أعطني الشد واذهبي بسرعة لاعداد الافطار

وان هي إلا بضع دقائق حتى هبطت مدام فوكير الدرج لتجد المرة قد انتهكت في لقى الابن

من بعض الآلية بكل همه ونشاط ، فصاحت بها :

— مستفجريس !

فهربت القطة ولكن لتعود بعد لحظة فتتسحج بساق سيدتها التي نادت سياني وقالت لها :

— انظري ماذا فعلت القطة ؟

— لا تجزعى ياسيدتي ، فسنصنع من هذا اللبن قهوة للأب جوريو وسأعوض ما نقص

من اللبن بالماء القراح . وننتي أنه لن يلحظ الفرق لأنه لا يقنبه الى شيء أبداً حتى ولا الى ما ياكل

وفي هذه اللحظة سمع جرس الباب ودخل فوتران القاعة متغنياً بصوته المريض المالى بأغنية

شعبية ، قطعها ليبتدر صاحبة الحان بقوله :

— عمى صباحاً يا ماما فوكير

ثم طوقها بنفرايه ، وأخذ يساعدها في إعداد المائدة وهو يوجه اليها الدعابات المرحية . .

ثم صاح بجأه :

— لقد رأيت اليوم شيئاً عجيباً

— وما هذا ؟

— رأيت الأب جوريو في شارع ولية العهد في منتصف التاسعة هذا الصباح عند دكان

صائع ممن يشترون القضايت القديمة ، فوقفت أنتظر ماذا عساه يصنع فإذا هو يتجه بعد ذلك الى

منزل مراب مشهور اسمه كوبيك من أخس المرايين اليهود ، لا يعجزه أن يبيع عظام أبيه اذا

وجد في هذا نفعا يعود عليه من وراء ذلك

— وماذا عمى الأب جوريو أن يفعل عنده ؟
 — لا شيء طبعاً سوى أن يحاول إصلاح ما تورط فيه من خراب وإفلاس وديون بسبب
 تهافته على هاتيك الفتيات . . .
 وفى هذه اللحظة صاحت سيلفى :
 — هذا هو
 وسمع الأب جوريو بصيحج :
 — تعال يا كريستوف ممي الى فوق
 وتبع كريستوف الأب جوريو ولكنه لم يلبث أن هبط وحده فسأله سيدهته :
 — الى أين يا كريستوف ؟
 — فى حاجة للسيد جوريو
 فانتزع فوتران من يده مظلوماً كان فيها وقرأ العنوان بصوت عال :
 — الى الكونتس انتازى دى ريستو
 — والى أين ستدخل هذا الخطاب ؟
 — الى شارع هيلدر على ألا أسلمه إلا ليد الكونتس شخصياً
 فرفع فوتران المظروف أمام عينيه فى مواجهة الضوء . وتساءل :
 — وماذا فيه ؟ أورقة نقد ؟ كلا ! بل لىصال غالية . رباه ! إنه رجل شهيم خدوم .
 اذهب الآن يا كريستوف بهذا الخطاب وثق أنك ستلقى حبة سخية
 وكانت المائدة قد أعدت فى ذلك الوقت تقريبا ، فلم تلبث مدام كوتير وفيكنتورين أن
 دخلتا . فسألت مدام فوكير :
 — أين كنتما هذا الصباح ؟
 فأجابتهما مدام كوتير وهى تجلس أمام الموقد لتدفئ قدميهما :
 — كنا نصل فى كنيسة القديس ايديان ، فالיום هو موعد توجبهنا كما تعلمين لائقاء والد
 فيكنتورين ، فالفتاة واجفة
 — خير ان شاء الله .. تدققي يا فيكنتورين ..
 وقرب فوتران مقعداً للفتاة من النار وقال لها :
 — جيل أن يصل المرء الى يرفق الله قلب الوالد .. ولكن هذا وحده لا يكفي ، فأنت بحاجة
 الى صديق يحسن التفاهم مع هذا القدم ، فرجل مثله يملك ثلاثة ملايين لا يكون انساناً اذا ضن
 عليك بياثنة حسنة .. فالفتيات الحسن لابد لهن من بائئات فى هذا الزمان
 فرشفت الفتاة بنظرة يترقق فيها الدمع وحنت به :

— بالله سيدى إذا كانت لديك وسيلة ما للاتصال بأبى أن نخبره أن عطفه الأبوى وشرف والدتي أغلى عندي من كل ما في العالم من أموال .

وفي هذه اللحظة هبط من أعلى جوريو والآنة ميشونون وبواريه في وقت واحد.. وامل رائحة الشواء هي التي اجتذبتهم .. فلما جلس الجميع الى المائدة دقت الساعة العاشرة ، وسمع وقع خطوات الطالب الرفي مقبلا من الخارج ، وبعد أن حيا جالس الى جوار الأب جوريو وقال وهو يتناول قطعة طيبة من الشواء وكسرة ضخمة من الخبز ظلت مدام فوكير مثبتة فيها عينيها لتقدر وزنها ونسومها :

— لقد حدث لي شيء خارق فقد كنت بالأمس في مرفص أقيم في دار ابنة عم لي — الكونتس دى بوسيان — وهي دار بالغة الفخامة فاخرة الآثاث والرياش وكانت المأدبة من أروع ما يكون وكنت أنا شخصياً كأتني ملك زمانى .. فقد راقصت أجمل حناء بين الحاضرات ، كونتس ساحرة ، هي ولاشك أشد من رأيتن في حياتي فتنة .. انها حورية من حوريات الأساطير تتألق بهاء وتشرق سناء .. وليس هذا عجيباً ، ولكن العجيب أنني رأيتها هذا الصباح سائرة على قدميها في شارع « دى جري » تخفق قلبي خفقاناً عنيفاً ، وخطر لي .. .

فقاطعه فوتران بقوله :

— إنها كانت قادمة الى هنا ؟ هاها ! املها يا صاح كانت بسبيلها الى زيارة الراين « كوبيك » فلو قدر لك أن تنبش صدور غايات باريس ، لوجدت الرايين يشعلونها أكثر مما يشعلها العاشقون .. إن صاحبك يا صديقي هي الكونتس استنازي دى ريسنو ، وتقيم في شارع هلدري ! فما سمع الطالب هذا الاسم حتى هلك في فوتران .. أما الأب جوريو فرفع رأسه فجأة وجهل يحدق في المتحادثين تحديقاً يفيض بالقلق والاهتمام بحيث استرعى دهشة سائر التزلاء وقال :

— إذن سيصل كريستوف متأخراً ما دامت قد ذهبت الى كوبيك وكان صوته طاهر الجزع .. فقال فوتران على مدام فوكير وهمس لها :

— لقد صدق حدسه ..

ومضى جوريو يتناول طعامه بطريقة آلية غير منتبه الى ما يأكل ، فقد كانت الحيرة والفتاوة ظاهرتين عليه بخلاء .. أما الطالب فقال بدهشة :

— ومنذا الذي أخبرك باسمها بحق الشيطان يا سيد فوتران ؟

— على رسلك ! فهذا الأب جوريو يعرف كل شيء عن الموضوع ، فلماذا أجبه انا ؟

— السيد جوريو ؟

وتنبه الشيخ المكين فتساءل :

— ماذا هناك ؟ أهى إذن كانت باهرة الحسن ليلة أمس ؟

— من ؟

— مدام دى ريستو . .

وهست مدام فوكير لجارها فوتران :

— أما ترى إلى الرجل القانى المنصابى وكيف تبرى عيناه ؟ !

وهست الآنسة ميشونو فى أذن الطالب :

— هو إذن يحوزها حقاً . . ؟

ولكن الفتى لم يلق بالآ لكلامها ، بل أجاب جوريو الذى كان يثره النظر :

— أجل ! انها كانت أبدع حسناً مما يتصور العقل . . ولولا وجود مدام دى بوسيان

لكانت ملكة الرقص ولا مرء ، فقد كانت محور اهتمام الرجال كافة . . فسمى مثلاً كان الثانى

هستر فى قائمتها ، ولم تفتح رقصة واحدة ، حتى كادت المحاضرات بنشققن من الغيظ . .

وعلق فوتران على هذا الحديث بقوله :

— هكذا النساء العظيمات الحسنات فى باريس : بالأمس ملكة رقص فى قصر دوفة ،

واليوم ذليلة على باب مراب دنى . . فلا تفوتك حكمة هذه الظاهرة الجديدة : فالباربيية

اليوم إذالم يسقمها زوجها بنفقات بذخها باعت نفسها لتحصل على المال . . فاذا أعجزها هذا

بحنت عن المال بأى وسيلة ، ولو أدى بها هذا إلى انتزاع اللقمة من فم أمها !

واكفهر وجه ألب جوريو ، بعد اشراق كان يكسوه وهو يصفى للعناب

أما فيكتورين فكانت منصرفة عن هذا الحديث كله بالخطوة التى كانت مزمنة أن تقدم

عليها . وأشارت إليها مدام كوتير أن الوقت قد حان لى تنهض وتلبس ملابس الخروج ، فلما

انصرفت السيدتان انصرف معها الألب جوريو ، فقالت مدام فوكير لابائين بحرارة :

— أما رأيتم ؟ لقد وضع بما لا يدع مكاناً للشك أن الرجل قد هدم نفسه وخسر ثروته

تحت أقدام هاتيك النسوة . . .

فصاح إيجين دى رستيناك :

— يتحيل عليك أن تقنعين أن الكونتس دى ريستو الحناء ذات صلة بهذا الألب جوريو

فأجابه فوتران بتؤدة :

— ان أمثال هذا الرجل تستقر فى آذانهم فكرة لا سبيل الى نزعها منها ، وهى أنه لا

يروى ظلمهم الا ماء يذوب معين ، قد يكون ملحاً أجاجاً ، وفى سبيل رشقة من هذا البنبوع

قد يبيع المرء منهم زوجته وبيته ، بل قد يبيع روحه للشيطان ! وهذا البنبوع يختلف اسمه

ماخلاف الناس ، فهو الميسر عند فريق منهم ، وهو المضاربة فى المصفق « البورصة » عند

فريق آخر ، وهو الموسيقى أو جمع النحف ولوحات الصور عند فريق ثالث . . وهو امرأة

بينها عند فريق رابع ، فلو قدمت للواحد منهم نساء الأرض كافة لما عدل بين هذه المرأة

المينة التي قد لا تحبه ، بل قد تسيء معاملته الى أقصى حد .. والأب جوريو من هذا الفريق الأخير .. وأعتقد ان الكونتس تأمن جانبه لالتزامه الكتان ، ولبعده عن إثارة الشبهات في عيظها الراق ، فهي تستغله مادياً .. وأما الشيخ المسكين فهو يتقدحاً لها ، فلا يشغل ذهنه خاطر سوى هواها ، وفيما عدا هذا فهو كما ترى دابة مجها .. أما سر ما حدث اليوم ، فهو ان الأب جوريو قد حمل الى الصائع صحفاً فضية لصفها ، ثم توجه الى المراسي كوينك في شارع دى جرى .. فإذا فعل عندما آب الى هنا ؟ أرسل كريستوف الى دار الكونتس دى ريتو .. وقد أرانا كريستوف العنوان على مطروف بداخله إيصال غالية .. وما دمت أنت قد رأيته بنفسها لدى نفس هذا المراسي ، فالمسألة لاشك لهاصفة الاستعجال .. ولاشك أيضاً أن الأب جوريو قد سدد لها دينها بصفها .. أجل ان هذا من الوضع بحيث لا يحتاج الى استنتاج .. وهذا يدلك يا صديقي طالب العلم والعلى ان صاحبك الكونتس كانت وهي تضحك أمس وتمرح وترقص وتتخايل وتتايل إنما كانت في الواقع تتقلب على جر الفضا قلقاً على دينها اللذل .. أو لعله دين عشيقها !

— لقد جعلتني على أحر من جر الفضا أنا نفسي لهفة على معرفة الحقيقة عن يقين .. وإني لذهاب غداً الى دار الكونتس دى ريتو ...

— ولعلك واجد الأب جوريو عندها ، لقبض مكافأته على عمله النبيل ...
وحيتئذ صاحت مدام فوكير في دهشة بالغة :

— أقول ان الأب جوريو حل صحافه القضية الى الصائع ليصفها ؟
وسأل يعين في لهفة :

— هل كانت على غطائها حمامتان تتلأمان ؟ ..
فالت صاحبة الحان :

— انها عنده صنو حياته ...
فقال فوتران :

— ها أنت ذا ترى الى أي حد بلغ هوس الرجل بهذه المرأة
وقام الطالب الى حجرته ، وعلا فوتران الحان . وماهى إلا دقائق حتى استقلت مدام كوتير وفيكيتورين عربة أجرة ، وقدم بوابيه ذراعه للآسة ميشونوليمشيا قبللا في حديقة النباتات ...
فالت سيلتي :

— انها أول مرة يخرجان فيها معاً ... وهما صنوان ييوسة ونحو لا وصلابة ، حتى لأخشى
إذا اسطدما أن يتقدح عنهما الضرر !



فلما عاد الأب جوريو في الساعة الرابعة ، لاحظ احمرار عيني فيكتورين . وكانت مدام فوكير

نصلى إلى قصة زيارتها الفاشلة لوالدها ذلك الصباح . فقد ضاق صدر السيد «تايغير» بمحاولات ابنته ومدام كوتير أن تقابلاه ، فسمح لهما أخيراً بوضع دفتانق ، اكى يعرفهما وجهة نظره بصفة نهائية . . .

واستعطردت مدام كوتير تقول لها :

— محبباً ياسيدتى انه لم يسمح لفيكثورين بمجرد الجلوس ، فصأت واقفة طول الوقت . وكان يوجه إلى الكلام ، لافى غضب — فليته أظهر هذا الانفعال — بل بكل هدوء قتل ، وقال اتنا نضيع وقتنا وجهدنا سدى بطلب الاجتماع به، وأن الآنسة الصغيرة — فهكذا يدعوا بنته ! — تنزل بنفسها في نظره بمنابرتها على ملاحقته — ومي لا تطلب مقابلاته إلا مرة واحدة في كل سنة ! — وانه بما أن والده فيكتورين لم تكن لها ثروة خاصة ، فلا حق للفنائة عنده في نبي . . . وجعل يضرب على هذه النغمة حتى بكى المسكينة ، وألفت بنفسها تحت قدميه وذات له بشجاعة انها انما تطلب مقابلاته من أجل شرف والدتها غيب ، وأنها على أنما استمداد لاطاعة جميع رغباته بغير تذمر ، وتوسلت اليه بكل تذلل أن يقرأ الكلمات الأخيرة التي سطرتها له والدتها في ساعة موتها . . . ومدت يدها اليه بالخطاب في تضرع يفتت الأكباد ، لست أدري من أين ألهها الله عباراته الرقيقة المؤثرة التي جعلتني أبكى بحرارة . . . فهل تدرين ياسيدتى ماذا كان يفعل هذا الوغد ومي تقول له هذا الكلام ؟ كان يقص أطافره ! ثم تناول الخطاب الذي سطرته مدام تايغير المسكينة بدعوعها وألقى به فوق رف الموقد قائلاً «لابأس..» وهم أن يقدم يديه لابنته فينهضها من مجدها ، وامله أيضاً كان سيقبلها ، ولكنه رد يده في آخر لحظة . . . ألبس هذا فظلياً ! . ثم دخل ابنه العتل ، ولم يانفت إلى شقيقته !

فصاح الأب جوروي :

— ها حيوانان بهيمان إذن !

واستعطردت مدام كوتير ، غير ملفية بالا إلى تعليق الشيخ المسكين :

— وحيث خرج الوالد والولد بعد أن انحنيا لي واعتذرا لارتباطهما بموعده سابق .. وكان هذا ختام زيارتنا .. وعزائي أنه رأى ابنته . وانى لأعجب كيف ينكر نسبتها اليه . وكيف ينقش شبهها الكبير به ، فانها صورة منه طبق الأصل . . .



الرحلة الأولى

وفي اليوم التالي تمطر راسينيك وتزين مختلفاً بزيه أياً احتفال ، ثم توجه في نحو الساعة السادسة بعد الظهر إلى دارمدم دي رستو . وكان أثناء الطريق يحاور نفسه حالاً بأقصى ما يمكن أن يتخيله من السعادة على عادة الاغرار من الشبان حين يمشقون أو حين يتصورون أهدافهم المأمولة على العموم ، فانهم يرون سبلهم إلى غايتهم مفروشة بالورد خلواً من العقبات والموتف فضلاً عن الأخطار . وكان يمشى في حذر شديد خوفاً على حذائه اللامع أن ينسخ ، وبعد في ذهنه العبارات الخفيفة الطريفة التي يجيب بها على أسئلة مدام دي رستو كما يفترضها ، ويراجع تلك العبارات للتقبيح والتصحيح كي تكون تمهيداً صحيحاً لإعلانها بهواه عندما يأون الألوان ولكن لا يمنع الحذر من القدر ، فقد وقع الذي كان يخشاه واتسخ ضلاه ، واضطر إلى مسحها وتنظيف سرواله عند الباب رويال ، وقال لنفسه بحسرة وهو يقبض بقية قصعه من ذوات المائه سنتيم كان قد حملها معه على سبيل الاحتياط للدرات المتوارى :

— لو كنت غنياً لذهبت إلى هناك في عربة ، ولأتيح لي أن أفرغ للتفكير والتدبير ... وأخيراً وصل إلى شارع هلدو وطلب مقابلة الكونتس دي رستو . وتقبل في حق النظر المتعالية التي صباها عليه خدم القصر حين رأوه يعبر الفناء راجلاً دون أن يسموا صوت عربة تقف بالباب . وقد تأثر لهذه النظرة بحيث طارت من ذهنه جميع العبارات والتدبيرات التي ظل يكدها فيه استعداداً لهذا اللقاء . ووقف المسكين ينتظر عودة الوصيف بالأذن وهو ينظر من نافذة غرفة الانتظار . وأخيراً عاد الوصيف ليقول :

— سيدى . ان سيدتى في حجرة زيقها مشغولة عن الرد على سؤال ، ولكن إذا شاء سيدى فليفضل بالدخول إلى الصالون ، فتحت زائر آخر ينتظر سيدتى فيه

وتقدم راسينيك ففتح الباب الذي دخل منه الوصيف بكل ثبات ، لكي يبرهن له أنه على علم وصلة بالبيت وأهله ، ولكنه ألقى نفسه في حجرة مزدجة بالمصاييح وأدوات التدفئة ومناشف الحمام ، فكانت الضحكات المكتومة التي سمعها صادرة من الدهليز هي القاضية على البقية الباقية من هدوئه وبقته بنفسه . ثم قال له الوصيف في ذلك الاجلال المبالغ فيه الذي يبدو في الواقع مزيداً من السخرية اللاذعة :

— من هنا يا سيدى من هنا

وتراجع راستينياك كما أشار إليه الوصيف ولكن ارتباك جملته يصطدم ببعض الأدوات فكاد يقع على الأرض ، فسحنت له الفرصة ليرى باباً يفتح في آخر الدهليز الذى نفذى إليه الحجره ، ويسمع صوت مدام دى ريتو وصوت الأب جوريو معاً ، ثم صوت قبة ! وتبع الوصيف فاخترق قاعة المائدة إلى الصالون الأول حيث جلس في مواجهة النافذة المصلة على القناء لكي يتاح له أن يتحقق هل الأب جوريو هو الذى كان مع الكونتس أم لا . وكان قلبه يدق دقاً متداركاً عنيماً وقد قفزت الى ذاكرته تعليقات فوتران وآراؤه . وكان الوصيف لا يزال بالباب قائم به إليه شاب بالغ الأناقة وقال له بصبر نافذ :

— إنى ذاهب يا مورييس ، فقل لسيدتك الكونتس اننى انتظرتها أكثر من نصف ساعة ثم اتجه الى النافذة التى كان يطل منها ايجين ، ولمنه ما فعل ذلك ليصل على القناء بل ليدين وجه الفتى . وأجابه مورييس قائلاً :

— يحسن بسيدى الكونت أن ينتظر برهة أخرى ، فقد فرغت سيدتى مما يشغلها وفى هذه اللحظة ظهر الأب جوريو متجهاً إلى الباب الخارجى عبر القناء ، خارجاً من باب السلم الصغير ، ومنهمكا في فتح مظلته دون أن يلتفت إلى الباب الكبير الذى فتح على مصراعيه ليدخل منه شاب يقود عربة خفيفة أنيقة ، ولم ينتبه إلا في اللحظة الأخيرة لكي ينجو من الوقوع تحت سنابك الحبل . والتفت الشاب صاحب العربة نحوه في غضب ، حتى إذا تبينه ألقى إليه تحية شبه مفتعبة أجابه عليها الأب جوريو بحجة ودود تطفح بالطيبة وقد مرت هذه الأحداث بسرعة البرق الخاطف ، والطالب منصرف اليها حتى نبهه صوت الكونتس في الحجره وهى تقول بلهجة يختلط فيها الغتاب بالدلال :

— أكنت تتوى الانصراف حقاً يا مكسيم ؟

فالكونتس لم تنبه إلى حضور العربة وسائقها الوجيه . أما راستينياك فاستدار ليرى الكونتس في ثوب من الكشمير الأبيض فيه عقد وردية ، وشعرها مقروك على سجيته ، والطرز يتضوع منها . فلا ريب أنها خارجة من الحمام الذى كسى جلالها الحلاب بضرب من الطراوة زادها فتنة على فتنة ، أما عيناها فكانتا لامعتين لمانا رطيباً . فلما تناول مكسيم يدها ليلبها تبين راستينياك وجه مكسيم ، وتنبهت الكونتس إلى وجود راستينياك ، فقالت له بلهجة لا يخفى مزاها على اللبيب :

— أهذا أنت يا ميسو دى راستينياك ؟ كم أنا مسرورة أن أراك الآن هنا !

وجعل مكسيم ينقل النظر بين إيجين والكونتس بما معناه :

— أظن يا عزيزتى أنك لن تعدى وسيلة لاجلاء هذا الفضول . خلاصته : منه باقة

وكانت الكونتس ترمق هذا المكسيم الأنيق الرقيق بنظرات ملؤها الامتثال ، من قبيل هذه النظرات التى تخضع مكنون سر المرأة وهى لا تدري ، فأحس راستينياك بمقد شديد على

هذا الشاب . . فشمرة الأشقر المحمد تجميداً جيداً قد أشعره بمبلغ ما عليه شمرة هو من اضطراب وبشاعة . ثم نلناه التينان الساطعان يديقي رائتي قد أطلعا على مبلغ حرمان نعليه من الأناقة والامعان برغم كل ما بذله أثناء الطريق من عناية وحذر ، ثم أى فرق هائل بين ملابس مكسيم وملابسه ، فلابس مكسيم دققة محبوكة تبرز أجزاء جسمه فكأنه فتاة دققة المحصر بارزة الصدر

وبدون أن تنتظر رداً من ايجين ، انجهمت مدام دى ريسنو إلى الصالون الآخر ، وتبعها إليه مكسيم . . فتبعهما ايجين عنقاً فوقف ثلاثهم قرب المدفأة في وسط الصالون الكبير . وكان الطالب يعلم عن يقين أن وجوده يضايق هذا الشاب السمج ولكنه عزم على المجازفة باغضاب مدام دى ريسنو في سبيل إغاظته ، وقد أدرك علاقة مكسيم بها فاطلوى له على كراهية الغريم لفرمعه ، غير عالم أن من عادة الكونت مكسيم دى تران أن يستدرج الناس إلى إهائته ، فإذا فعلوا بارزهم وقتلهم

وإذا كان ايجين صياداً ماهراً فانه على كل حال لم يبلغ المرتبة التي وصل إليها مكسيم من إصابة الهدف عشرين مرة من اثنتين وعشرين طلقة

واخصرف الكونت إلى قلب النار في المدفأة بوجهه هضم عليه غيرة السخط ، فتغير وجهه استناراً ونظرت إلى ايجين نظرة تساؤل بارد ، كأنها تقول له :

— لماذا لاتمضي من حيث أتيت ؟

وتصنع ايجين السرور وقال لها :

— سيدتي ، لقد تعجلت المناسبة لكي أراك حتى ...

ولم يتم عبارته ، لأن باباً فتوح ودخل منه السيد الذي دخل الفناء يقود عربية ، وقد بداعارى الرأس ، فلم يحى الكونتس وألقت على ايجين نظرة متسائلة ، ومد يده إلى مكسيم فصاغه بطريقة تنم عن أخوة دهنس لها ايجين ، ذلك أن أهل الريف مجهلون منافع الحياة المثانة الأقطاب . وقدمت الكونتس زوجها إلى الصال قائلة :

— مسيو دى ريسنو

فانحنى ايجين انحناءة عميقة واستطردت الكونتس :

— وهذا هو مسيو دى راسينيك ، من ذوى قربي القيكونتس دى بوسيان عن طريق

آل مارسياك ، وقد كان لي شرف مقابلته في حفلتها الراقصة الأخيرة

• من ذوى قربي القيكونتس دى بوسيان عن طريق آل مارسياك •

كانت هذه الكلمات كافية لاجداث تأثير سحري على زوجها فخرج عن فنوره وترتمت وحيا الفنى بحرارة . بل أن الكونت مكسيم أيضاً تخلى عن وقاحته وازدرائه . فكان هذا الانقلاب أوضح برهان لدى الطالب الربني على مبلغ ما للأسماء العريقة من نفوذ في المجتمع الباريسي .

وساعدت هذه النجدة على تفتق ذهنه وحضور بديهته فعاتت إلى ذاكرته العبارات والاشارات
التي كان قد أعدها في ذهنه لهذه الزيارة

وأخذ الكونت دى رينسو يتحدث إلى الفتى عن شجرة النسب التي تربط منذ أجيال أسرته
بأسرة الفيكونتس دى بوسيان حتى إذا عرف أن بين أجداده قائداً بحرياً هتف به :
— اليس هو ياسيدى الذى كان يقود السفينة « المنتقم » قبل سنة ١٧٨٩ ؟
— هو عنه . !

— إذن فهو قد كان يعرف جدى أنا الذى كان يقود السفينة واروك ...
وهز مكسيم كتفيه وألقى على الكونتس نظرة مؤداها أن زوجها ما دام قد أخذ في ذلك
الحديث فهو لن ينتهى منه أبداً كما دته ، ففهمت انتازى مراده وابتمت وهي تقول له :
— تعال يا مكسيم معى فلدى شئ أريد أن أكلفك به ، أما أنت يا سيدى العزيزين
فستركما لتجرا على هواكما على ظهر المنتقم أو الواروك
ونهمضت فأشارت إلى مكسيم فتبعها نحو حجرة زيتنها . وما وصلا إلى الباب حتى قطع
الكونت حديثه مع ابنيهن وهتف بزوجه :
— انتازى . ابني يا عزيزتى فأنت تعلمين ...

— انى عائدة ، فلن تستغرق المهمة التي أريد تكليف مكسيم بها سوى دقائق
وعادت وشيكا ، فقد أدركت بغضرتها أن هذه اللحظة من اللحظات التي تنور فيها شكوك
الأزواج بقوة وإن كانت دوافع الشك غير قوية . وأدركت أيضاً أن الطالب الشاب هو المسئول
عن استيلاء هذه الحالة على زوجها بآثاره اهتمامه بموضوعه المفضل وهو البحرية ، فرشقت
الطالب بنظرة غيظ وشيق لم يرها سوى مكسيم الذى قال للكونت والكونتس والطالب :
— أراكم مشغولين ، ولا أريد أن أثقل عليكم

واصرف ، فناداه الكونت عازماً عليه بالبقاء ، وبأدركت الكونتس باقتفاء أثره وهي
تدعوه إلى العشاء ، ثم بقيا في الصالون الآخر برهة طويلة على أمل أن يصرف الكونت
الطالب الشاب

وكان الشاب يسمعهما تارة يضحكان وتارة يتحدثن ، فبذل جهده في الضفر برضى الكونت
بالمجاملات حيناً وباللدغابات حيناً آخر ، مجتهداً في فتح أبواب جديدة للمناقشة في الأمور التي
يهم بها حتى يتبين مدى علاقة جوريو بالكونتس قبل انتهاء الزيارة . فهذه المرأة المدلحة في
مكسيم ، والمنسلطة على زوجها ، والتي تربطها بصانع الإطارية « الشعرية » السابق صلات
غامضة ، كانت تبدو له لغزاً يتلهم على استجلاء خفاياه ، وبضمر الطامع في الوصول إلى عرش
قلبها يوماً من الأيام

ونادى الكونت زوجته من جديد فقالت لعاشقها :

— لا فائدة يا عزيزى مكسيم ، لا بد من التسليم بالأمر الواقع ، ذل هذا المساء
— أرجو يا عزيزتى أن توصدى بابك فى وجه هذا الشاب الذى يضرب لك جذوة مشتتة
من الهوى يبدو وجهها فى عينيه حين ينظر اليك ، فهو لاشك سيلحقك بمباراة الفرام
فاضطر إلى قتله

— هل أنت أبله يا مكسيم ؟ ان هؤلاء الطلاب الاحداث من أصلح ما يكون لاداء دور
مانعات الصواعق : ولن يفوتنى أن أوجه شكوك ريسنو وغيره نحو هذا الشاب
فانفجر مكسيم ضاحكا وخرج ، وأطلت الكوننس لنراه وهو يفود حصانه ويطوح سوطه
فى الهواء ، ولم تعد إلا حينما أقفل وراءه الباب الكبير ، فقال لها زوجها حينئذ :
— ألبست هذه من غرائب المصادفات ؟ فضيعة أسرته لا تبعد كثيراً عن ضيقتناى « فرتى » ،
وجدى وجده كانا زميلين

فأجابت الكوننس وهى شاردة الذهن :
— يسرنى أن يكون لنا أصدقاء مشتركون
فأجابها بإيجاز بصوت منخفض :
— أصدقاؤنا المشتركون أكثر عدداً مما نظنين
فجذبت فيه وسألته باهتمام :
— وكيف كان ذلك ؟
— لقد رأيت منذ قليل شخصاً يخرج من عندك . وهذا الشخص جارى المباشر فى الحان
الذى أنزل فيه ، وهو الأب جوريو
وما نطق الشاب بهذا الاسم الأخير على هذا النحو حتى أخذت الكونن رجفة امتعاض وذل
للشاب بحدة :

— هلا قلت « السيد جوريو » يا سيدى ؟
وشجب وجه الكوننس ثم احمر وبدأ عليها الضيق ثم تصنعت الهدوء وقالت :
— من رابع المستحيلات أن تعرف انساناً أدنى إلى قلبنا منه
ثم انفتحت إلى البيان وقالت كأنما قد استولت عليها نزوة طارئة :
— هل تحب الموسيقى يا سيدى ؟
— أحبها كثيراً
واسكن حاله كانت قد سامت لشعوره بأنه قد افترف خطأ غامضاً
— وهل تغنى ؟
— كلا يا سيدتى
— واخسارتاه

وأخذت تدندن أغنية إيطالية

والواقع أن إيجين قد أتى أمراً إذا بذكره الأب جوريو على هذا النحو : فهو كشخص أدخل على سبيل التكريم الحاس إلى متحف للمصنوعات الدقيقة الثينة يملكه هاو من كبار الهواة ، ولكنه أسقط على الأرض بحركة غير موفقة صفاً أو صفيين من تماثيل كانت رؤوسها عظيمة ولامعة إلى أجسادها بعناية ، فهو يشئ لو انشقت الأرض وابتنمت . ورأى وجه الكونتس جامداً قاتراً ونظراتها ممرضة فاعتذر وهم بالانصراف . فقالت له الكونتس :
— نثق أنك ستجد الكونت وستجدني على استعداد دائماً للترحيب بك كلما خطرت ببالك زيارتنا ...

فحياما إيجين وخرج متبوعا بالكونت الذي أصر على مرافقته إلى غرفة الانتظار ، فلما خرج الشاب قال الكونت لوصيف موريس :
— كلما حضر هذا السيد فلن أكون هنا لا أنا ولا الكونتس

ووجد إيجين المطر ينهمر ، فإ رأى عربة كانت عائدة من موكب عرس ولا تزال بها بقية من الزهور حتى ركبتها وأعطى السائق عنوان الفيكونتس دي بوسيان قريبته ، لبشكرها ويوثق صلته بها ويسفرها عما غمض عليه من أمر الكونتس دي ريسو



محنة عاشقة

ولم يخل الفنى من الزهو حين سمع سائق مركبته يصيح بأعلى صوته :
— افتحوا الأبواب . . .

فتقدم حاجب عليه بزة حمراء مذهبة ففتح البوابة الكبرى على مصراعها ، وشعر راسنيناك بالرضا والعربة تجتازها إلى رحبة القصر ، فتقف به عند السلم . وفيما هو يهبط من العربة طرقت سمعه ضحكات بعض الخدم وهم يتدرون بعمرته المدة لموكب عرس من أعراس سواد اللاس ، وأغانه على إدراك مبلغ غرابة عربته ، وجود عربة أخرى مظهمة أنيقة و الفناء ، هى عربة بعض الزوار ولأرب ، يجرها زوج من الصافنات الجياد ، بمضان النواجذ على التاجم ، ويكادان يخرججان من اهابهما توقدا وقوة . . . ولا يمكن أن تساوى المركبة وجوادها أقل من ثلاثين الف فرنك بحال . . . فقال الفنى فى نفسه :

— من هنا أيضاً ياترى ؟ لابد أن لدى ابنة عمى « مكسيهما » هى الأخرى !
وعرف فى هذه الساعة أنه يندر أو يستحيل أن يجدى بين فانتات باريس من ليس لها عشيق واحد على الأقل ، فالنافسة صعبة ومريرة

وصعد الدرج ، وهو يشعر فى حلقه بنصة ممتضة . . . فلما وصل إلى الباب الزجاجى فتحه خدم عليهم وقار الجذ ، فدخل إلى جناح الفيكونتس لأول مرة — فالمرقس أقيم فى البهو الكبير بالطابق الأرضى لافى جناح ربة البيت الحاس بضبيعة الحال — وتبنى له أن يشهد تلك القفامة العريقة التى تدل على أرفع ذوق وآتق أسلوب فى الحياة

ولما كانت الكونتس لاستقبال أحداً قبل انتصاف الخامسة ، فانه لو بكر خمس دقائق لما حظى بلقائها . . . أما الآن فقد اقتاده الوصيف صاعداً به سلداً كبيراً مفروشاً ببساط أحمر سميك إلى جناح الفيكونتس التى كان يجهل عنها وعن حياتها كل شئ . مع أن هذه الحياة لها قصة شائفة شائعة على جميع الألسن فى مجتمعات باريس

فالفيكونتس عقدت آصرة العشق منذ ثلاث سنين بينها وبين نبيل من أعلى نبلاء البرتغال مكانة وأوسعهم ثروة ، هو الماركيز « داجودا بنتو » . وكان غراماً جارفاً جامعاً مانعاً . لا قبل للماشفين بوجود طرف ثالث بينهما أو معهما ، وكانت هذه الحقيقة من الوضوح بحيث اقتنع بها الفيكونت دى بوسيان نفسه ، فكان قدوة للجميع فى احترام هذه العلاقة إن طوعا وإن

كرهاً ، فألف الذين كانوا قد درجوا على زيارة الفيكونتس دى بوسيان فى الساعة الثانية بعد الظهر أن يجدوا الماركيز داجودا بونتو لديها . ولما كانت الفيكونتس لانتطيع أن تقفل بابها فى وجههم صراحة ، فقد عمدت إلى استقبالهم بفتور ظاهر ، وإلى التزام الصمت التام معهم ، حتى فهم الجميع أن وجودهم ينقل عليها ، فلم تلبث أن الفت نفسها تتمتع بالوحدة التامة فيما بين الثانية والرابعة بعد الظهر .

وفى المساء ، عندما كانت تذهب الى الأوبرا أو غيرها من المسارح ، كان يصحبها زوجها كما يصحبها الماركيز .. ولكن زوجها كان من اللباقة بحيث يقادرها بعد أن يفرها فى المقصورة ويذهب لقضاء السهرة مع أصحابه .

والآن نبتت فى رأس الماركيز فكرة الزواج ، والفتاة التى وقع عليها اختياره هى الآنسة دى روشفيد .. وشاع هذا الأمر فى الأوساط الراقية ، حتى لم يعد يحمله سوى شخص واحد هو الفيكونتس دى بوسيان . . . فهو وإن فأنحتمها بعض الصديقات فى هذا تليجاً ، لازالت تعقد الأمر لنصاً من تدبير حاسداتها وكيدهن ، ولا أساس له من الصحة إطلاقاً .. ولكن التجاهل أو الانكار لم يعد مجدياً ، لأن عقد الخطبة سينشر رسمياً فى وقت قريب ويطلب الاذن من الملك بالزواج بصفة نهائية .

وكان حضور الماركيز عند صاحبه هذا العصر على نية مصارحتها بالأمر ، ولكن الشاب البرتقالى الوسيم لم يجد فى نفسه القدرة أو الشجاعة على هذه المصارحة ، فليس أشد من توجيهه مثل هذا الانذار النهائى « الى امرأة عاشقة . . بل ان من الرجال من يستعظم مواجهة امرأة حسنة بما يسوؤها أكثر من استمضاهم لسيف مرهف يلقاه به عدوه وهو عارى الصدر .

وفى اللحظة التى وصل فيها ايجين دى رستنيك الى دار الفيكونتس كان البرتقالى على آخر من الجمر ، تلهقاً على الانصراف ، لارتباطه بموعدهم خطيبته . رجلاً أمراً لاقضاء بانثياً الى الفيكونتس اعتماداً على أنه سيلفها حتماً من طريق غير طريقه هو ، أو إذا كان لابد من أن يفضى به اليها هو شخصياً ، فمن الخبر أن يكون ذلك فى سعلور يخطها ، فلنقل أهون من اللسان فى مثل هذه الأحوال . !

ولما أعلن الوصيف الى الفيكونتس حضور السيد ايجين دى رستنيك ، استولى الفرح على الماركيز داجودا بونتو ، ولم تفت هذه الظاهرة عين الفيكونتس الباحة ، ذلك أن المرأة العاشقة أرهف حساً بالخطاطر التى تهدد غرامها من احساسها بلذة الغرام نفسه .. وكان ايجين يجهد أفى الرء فى باريس لا ينبغى أن يزور كائناً من كان إلا بعد أن يستقصي من أفواه الخلق تاريخ البيت وتاريخ الزوج والزوجة والأبناء ، حتى لا يقع فى أخطاء سخيفة . . وعلى كل حال ، إذا كانت زيارته السابقة قد نقلت على السكونتس دى رستو ومكسب دى تران ، فزيارته هذه

أهذت الماركيز داجودا من ورطة كان لا يدرى له منها مخرجاً .. فقال البرتغال وهو يبادر الى باب الصالون في شيء من الالفة :

— وداعاً الآن إذن ..

فأجابته الفيكونتس وهي ترشفه بنظرها :

— بل الى اللقاء هذه الليلة .. ألسنا ذاهبين الى المسرح ؟

— أظننى لا أستطيع . !

فنهضت الفيكونتس ونادته ليفترب منها ، غير ملففة بالا الى اييمين الذى وقف بجوار الباب يتأمل ما حوله من طنافس ورياش لم يكن ليحلم أنها يمكن ان توجد ، وهو فى الوقت نفسه لا يدرى ماذا يصنع بنفسه فى حضرة هذه السيدة وهي لا تلتفت اليه

وأشارت الفيكونتس بسبابتها الى الماركيز اشارة لطيفة ليحتل مقعداً . مواجهاً لها .. وكان فى هذه الاشارة من السيطرة العاطفية ما جعل الماركيز يترك مقبض الباب ويمس حيث أشارت فرمقه اييمين بنظرة لا تخلو من حسد وهو يقول فى نفسه :

— هذا إذن هو الرجل صاحب المربة الفارغة والجياد القناق ! أحتم لزام إذن أن تكون للمرء جبال من الذهب حتى يضطر بنظرة من امرأة باريسية ؟ .

وشعر بشيطان الترف يلدغ قلبه ، ويحمى الطموح والضع تسرى فى دمه ، وبالغنى الى الذهب يفصح به حلقه ، فان آله يشكون مرارة الحرمان لكى يوفروا له ذلك العيش الكفاف فى باريس . ولكن المقارنة السريعة بين حالته الراهنة وبين المثل المجسم الذى يشهيه والحاضر أمامه فى هذه الساعة جملة القنوط يستولى عليه فهت وظل قائماً حيث هو

أما الفيكونتس فقالت للبرتغال وهي تضحك :

— ولماذا لانتطيع الحضور الى المسرح ؟

— لدى أعمال ، وسأنتشى على مائدة سفير انجلترا

— استأذن إذن عند حلول الموعد وتعال .

وعندما يضطر الرجل الى الحداغ يلقى نفسه وقد جرت له الأكدوبة الأولى الى سائلة من الأكداب . فقال الماركيز ضاحكاً :

— أنصرين ؟

— طبعاً

— وهذا ما كنت أريد أن أسمعه منك

وتناول يد الفيكونتس وقبلها وانصرف . وعبث اييمين بأصابه فى شعره وتهياً لتجبة الفيكونتس وقد ظننها فرغت له ، ولكنها انتفضت وأسرعت الى الردة ، ثم جرت نحو النافذة وأطلقت على الماركيز وهو يركب عربته ، وأصاحت السمع فنا الى أذنها الأمر الذى صدر الى السائق :

— إلى دار السيو دي روشفيد
كانت هذه الكلمات هي البرق اللامع والصاعقة المنقضة على هذه المرأة التي شعرت في
هذه اللحظة أنها فريسة آلام نفسية لا تقل تريحاً عن حشرة الزرع . فتل هذه الحنة هي أقصى
ما بهي به أهل هذه الطبقة المالبة
ودافت الفيكونتس إلى مخدعها فجالت إلى نضد وتناولت صحيفة من الورق جميلة التريش
ورقت عليها هذه السطور :
« مدمت ستعشى عند آل روشفيد لاني السفارة البريطانية فني عنقك لي تفسير هذا السلوك ،
وإني في انتظارك »
وبعد أن أطلعت بضعة حروف خرج بها اختلاج يدها عن نخطها وقمت الرسالة بحرف ك ،
الغضاراً لاسمها وهو كلير دي برجول ، ودقت الجرس فخصر الوصيف للتو فقالت له :
— اذهب بإجاك في منتصف الساعة النامة إلى قصر مسيو دي روشفيد واطلب مقابلة
للركيز داجودا . فإذا كان هناك فسله هذا الخطاب ولا تطلب عليه رداً . أما إذا لم تجده هناك
فهد إلى الخناب
— في الصالون شخص ينتظر سيدتي الفيكونتس
— آه ! هذا صحيح
ثم دفعت بيدها باب الصالون ودخلت



الدرس الأول

— عفوك يا سيدى ، فقد كان على أن أكتب كلمة صغيرة . أما الآن فأنا رهن اشارتك ولم تكن نفقه ما تقول للفتى لأن لسان حالها كان يعنى شيئاً آخر مؤداه :
— هو إذن ينوى أن يتزوج الآنسة دى روشفيد . ولكن أهو حر حتى يفعل ذلك ؟
سينحطم هذا الزواج فى هذه الليلة ، أو ... ولكن لا محل لاحتمال آخر
وأجاب ليحبن على عبارتها المنطوقة قائلاً :

— يا بنت العم ...

— هيه ؟!

ورسفته بنظرة باردة كالثلج فأدرك مقصودها فبادر إلى اصلاح خطئه وقد تضرع وجهه :
— سيدتى ... اغفرى لى ، فأنى فى حاجة إلى حمايتك ، وفى الشعور بقربانك منى ما يشعرنى
بهذه الحماية

فابتسم الفيكونتس دى بوسيان ، ولكن ابتسامتها كانت هليها إثارة من الحزن وقالت للفتى :
— حسناً يا ابن العم ، فيم عسانى أكون نافعة لك ؟

— وهل ترانى أعلم ؟ فان مجرد قرابتي منك ، ولو من بعيد ، تكنى لتزويدى بثروة طائلة
من الأجداد الاجتماعية ، ثم أنت الشخصية الكبيرة الوحيدة التى أعرفها فى باريس ... وفى
نفسى أن أطلب إليك شرف الانصال الدائم بك ، فأكون ألزم لك من ظلك ، وأطوع لك .
بنانك ، وعلى استعداد دائم للدوث فى سبيلك

— وهل أنت مستعد لقتل انسان من أجلى ؟

— بل اثنين

— يا لك من طفل ! أجل ، أنت طفل لا تزال

ومسحت قطرات من الدمع خاتنها خلسة واستطردت :

— ... ومثللك يعرف كيف يحب بإخلاص !

— آه .. بهذه المناسبة ، لفنت نظرى فى حفاتك الراقصة سيدة تدعى مدام دى ريبستو ،
وقد زرتها هذا الصباح

فابتسمت الفيكونتس وقالت :

— لابد إذن أنك سببت لها بزيارتك هذه ضيقاً
— أجل . فأنا كما تعلمين ربني غر جدير أن أغضب مني جميع الناس إذا لم تسعفني بموتك
وإرشادك . ويغزل إلى أنه من المتعذر أن يحمي الإنسان في باريس كلها امرأة شابة جميلة ثرية
أليفة غير مشغولة بفرام يسترقها ، وأنا كما ترين في حاجة إلى امرأة هذه صفاتها أنعلم على يديها
ما نسمونه علم الحياة . فاني أجد أينا ذهبت شخصاً من طراز مكسيم دي ترائي . ولهذا لجأت
إليك لأسألك حل لنز أعياني ولأعرف منك كنه الخطأ الذي ارتكبته . فقد تكلمت هناك عن
رجل يدعى الأدب ...

وفي هذه اللحظة قطع جاك الوصيف عبارة الفنى . معلناً :
— الدوقة دى لا نجيه !

فقامت الفيكونتس لترحب بالدوقة وكانت مصاحبتها دليلاً على أخوة لا يمكن أن يكون هناك
ما هو أغلى منها أو أخلص ، فقال الفنى في نفسه :

— يا لها من صديقتين ! وأحسب هذه الصداقة متبعة لي مرشدتين لا واحدة ، فلهما
ولا شك ذوق واحد وعواطف واحدة بحيث يكفي اهتمام أحدهما في كتمهم في الأخرى أيضاً
وقالت الفيكونتس لرائتها في لهجة معسولة :

— أى غاية ميمونة مباركة أناحت لي أن أسعد برؤياك الآن يا عزيزتي انطوانييت ؟

— لقد رأيت المركيز داجودابنتو داخلا عند السيودى روشفيد فسبق إلى ظني أنني
سأجده وحده !

ولم تضطرب الفيكونتس ولم تهتز فيها شعرة ولم يحمر وجهها ، بل أن جبينها بدا كما لو
كان قد ازداد اشراقاً على اشراق ، واستطردت الدوقة وهى تنظر إلى إيجين :
— ولو كنت أعلم أنني سأجده مشغولة ...
فقال الفيكونتس :

— هذا السيودى إيجين دى راستنيك ، من أبناء عمومتي ، وهل لديك يا عزيزتي أبناء عن
الجنرال مونتريغو ؟ لقد قيل لي أمس إنه قد انقطعت أخباره عن المجتمعات ، فهل هو كان لديك
اليوم أيضاً ؟

فسمرت الدوقة بالطلعة ، لأنها عاشقة مدلهة بالجنرال الذى شاع هجره لها في المدة الأخيرة .
وفخرج وجهها وهى تجيب :

— لا أظنك يا كلارا تجهلين أن عقد خطبة المركيز على الآنسة دى روشفيد سيملن عدا
رسمياً

فكانت الضربة هذه المرة من الشدة بحيث ترنحت تحتها الفيكونتس
— هذه أراجيف يتشدق بها البلهاء ! فلهذا يهدى الماركيز الى قوم مثل آل روشفيد

اسماً . أبهى الأسماء وأعرقها في بلاد البرتغال ، وآل روشفيد لا ترجع نبالهم إلا إلى أمس
القريب ؟

— ولكن برت دى روشفيد سيكون لها دخل يبلغ مائتي ألف فرنك سنوياً
— الماركيز أضخم ثراء من أن يقيم وزناً لهذه الحسبة
— ولكن لا تنسى يا عزيزتى أن الآنسة دى روشفيد ساحرة باهرة الجمال
— آه !

— وهو الليلة سبتعشى على مائدتهم بعد أن تم الاتفاق على جميع الشروط ، وإنه ليدعثنى
ألا يكون لديك علم بالأمر

فالتفت الفيكونتس الى ايجين لتغير مجرى الحديث وقالت :

— هذا الفتى حديث عهد بالمجتمع يا عزيزتى انطوانييت ، فلترجىء هذا الحديث الى الغد
رفقاً به لأنه لا يققه فيه شيئاً . فإذا كان الغد فان الخافى من الأمر سيملن ولا يحتاج الى كلام
والآن خبرنى يا ابن العم أى خطأ تورطت فيه عند مدام دى ريستو ؟

— لأننى يا سيدتى بعد أن نجحت في كسب مودة السكونت دى ريستو ، خطرلى أن أذكر
له واللكونتس أننى أعرف شخصاً كنت رأيته خارجاً من السلم الصغير لقصرهم بعد أن لحته
يقبل السكونتس في دهليز معتم

فصاحت السيدتان في نفس واحد :

— ومن هو ؟

— رجل شيخ يعيش في خان متواضع أنزل فيه أنا ، وهو تمثال لللبؤس والمزء ، ويدعوه
عارفوه على سبيل الزاوية « الأب جوريو » ...

فصاحت به الفيكونتس :

— أيها الطفل الغرير . إن مدام دى ريستو كانت تدعى الآنسة جوريو . . .

وقالت الدوقة :

— فهى ابنة صانع إطرية (شعيرية) جمع ثروة في غفلة من الزمان ..

وهنت الشاب وقد بدت عليه الدهشة الهائلة :

— أهو أبوها ؟

— نعم . فقد كانت له فتانان ، هو بهما مفتون مجنون ، مع أنهما أنكرتا وتكرتا

له . . .

وقالت الفيكونتس للدوقة :

— أليست الأخرى متزوجة من صاحب مصرف له اسم ألماني ، أظنه البارون دى
نوسينجن ؟ وأليس اسمها دلفين ؟ وهى شقراء لها مقصورة فى الأوبرا وفى الأوبرا الإيطالية ،

وتضحك بصوت مرتفع جداً لتلفت إليها الأنظار ؟
— يا لذا كرتك الدهشة ! وكيف بالله تشغلين رأسك بهؤلاء القوم ؟
أما الفتى فجعل يردد كأنه مخاطب نفسه :
— أنكرنا أبائنا وتنكرنا له ...

فقال الفيكونتس :

— أجل . . .". تنكرنا لهذا الأب الطيب الذى منح كلا منهما أكثر من نصف مليون
باشة ، غير مبق لنفسه سوى عشرة آلاف فرنك إيراداً سنوياً ، ظناً منه أن بنتيه ستكفيانه
كل الحاجة ، وأن له فى بيتيهما بيتين لا واحدا . . . ولكن ما اتقضى العالمان حتى أوصد
دونه البابان !

فترقق الدمع فى عيني الشاب ، وأنشأت الدوقة تقول :

— هذا محزن حقاً ، وإن كان يتكرر كل يوم .. واني أذكر قصة هذا الرجل فقد كان
رئيس حرفته أيام الثورة الكبرى ، فارتحل بالساسة وذوى النفوذ ، وتاجر فى السوق السوداء
وجعل يبيع الدقيق بعشرة أضعاف ثمنه .. ولكن هذا الرجل الذى قسا قلبه حتى باع القوت
للمشعب الجائع بثمان اعصره من دمائهم ، كانت له فى الحياة غاية واحدة ، هى رفع بنتيه الى أعلى
الدرجات ، وتوفير أسباب الثروة لهما بأى ثمن .. ولكن ما ان تم الزواج حتى ضاقت زوجها فيها
بهذا الشيخ السوقى ، وأذعنت البنات فأشارتا اليه ألا يحضر الا فى الأوقات التى لا يزورها فيها
أحد بحجة التمتع بمجالسته على انفراد فلا يفسد الناس عليها هذا المتاع .. وفهم الرجل فيما اعتقد
ولكنه طوى جنتيه على قلبه الدامى وسكت إيثاراً منه لتوفير السعادة العائلية لبنتيه ، فأصبح
لا يزورها إلا متخفياً متوارباً بالجدران وصاعداً من سلم الخدم .. فلما رأى بنتيه قد سكنتا
من هذا قرت عينه لأنه أدرك أنه خيراً فعل ، وهكذا بذل هذا الوالد كل شئ لبنتيه ، بذل
لها أحشاءه طعاماً عن طيب خاطر ، ونزل لهما من كل ثروته بين يوم وليلة ، ثم نزل أخيراً
من مجرد الزهو بها ، وهو يوشك أن ينزل حتى عن رؤيتهما .. !

فقال الفيكونتس :

— ألا ما أخس الدنيا !

فأجابتها الدوقة وهى تتناول يدها هامة بالانصراف :

— كلا ! ان الدنيا هكذا ، فعلى من يطلبها أن يقبلها على علاقتها . . . !

فلما خرجت الدوقة التفت الفيكونتس الى الشاب وقالت :

— اسمع يا عزيزى : خذ الدنيا بما هى .. فاذا كنت ترى الى الغنى والتجاسع فاني معيبتك
من طيب خاطر .. وسترى حين يتجاسع القنصاع مبلغ الفساد ، فساد النساء وفساد الرجال على
السواء .. وكنت على كثرة ما قرأت فى كتاب الحياة جاهلة ببعض صفاته ، والاله

عرفت ما لم أكن قد عرفت ، دلنجاح في الدنيا يكون على قدر التجرد من مزايا الرحمة والنجدة
وعرفان الجليل . كن فاسياً وغدا مجرداً من الاخلاص تنفّر الى أهدافك قفزاً ، فاذا اختلج قلبك
بشعور صادق فحذار ثم حذار أن تطلم على حقيقته مخلوقاً ، لأنه سيكون نقطة الضعف التي تؤثّر
منها .. فهل جال بذهنك ان التنسك للوالد هو جريمة الفتاين الكبرى ؟ انك إذن على خطأ
كبير فانه لصر من تنسكهما لأيهما تلك المنافسة الحامية الوطيس الناشبة بينهما الى غاية من
التبليّض والشحناء .. فالكونت دى ريسنو عريق في النبالة ، وزوجته قدمت رسمياً للملك فحصلت
بذلك على اعتراف بها صريح .. أما أختها الثرية الحسنة دلفين دى نوسينجين فهي امرأة رجل
من رجال المال ، ولكن حزنها لا يعده حزن ، والغيرة تأكل حشاشتها أكلا ، لأنها من
الوجهة الاجتماعية دون أختها يفراسنخ .. فليس زوجها نبيلاً ممرقا ، وهي لم تدع الى البلاط ولم
تقدم الى الملك ، ولا تفتح لها لهذا السبب أبواب الأوساط العليا ، فالأختان لهذا متابذتان ،
تنسك الواحدة منهن للأخرى تنسكهما لأيهما .. وان دلفين لدى استعداد أن تلمق كل الرجل
للتعصر على الطريق بين بيتها في شارع سان لازار وبيتى هذا في شارع دى جرينل ، في سبيل
أن تحظى بالدخول الى صالونى .. وقد ظنت أن صاحبها دى مارساي سيصل بها الى ماتيني
ولكن دى مارساي يلبو بها ويتمتع بحاسنها ولكنه لا يأبه لها في الحقة .. وهذا .
جعلها تلاحقه حتى أمته ، فاذا أنت قدمتها الى وأدخلتها بيتى صارت أمة لك ، وإنى مستعدة
من أجل خاطرك أن أستقبلها في حفلاتى العامة مرة أو مرتين وان اقرأها السلام ، فأنت قد
أوصدت في وجهك باب شقيقتها الكونتس دى ريسنو يدك ، وثق أنك لن تجدها في بيتها
في أى وقت ذهبت .. فاجل الأب جوريو يعرفك بابنته الحسنة مدام دلفين ، ومتى حصلت على
قلبا بتدعيها الى ، تهاقت منافساتها على انتزاعك منها ، وستلاحظ أن أشد هؤلاء المنافسات
حاسة من أشدهن ارتباطاً بها بأواصر الصداقة .. فالنجاح عند واحدة هو مفتاح النجاح
الدائم ، فالباريسيات لا يغتن الا بما في حوزة الأخريات ، أما الرجل القى لا تريده امرأة فلن
يجد امرأة تريده .. فليك بالبارونة دلفين ، فانك بهذا تفتح لنفسك أبواب مخادع أجمل
الباريسيات ، وتنعم في نفس الوقت من أختها أوجع انتقام ، لأنه ليس أشد إغظلة لها من
دخول شقيقتها في الأوساط التي تحسب أنها انشردت بها دونها .. والآن اذهب يا عزيزى
استعد لهذه الموقعة الأولى في سبيل الظفر بمناعم باريس . . !



مفرق الطرق

خرج ايجين من لدن الفيكونتس مستنار الفضب ، ترن في أذنه كلمتها :
— لقد أوصدت في وجهك بيدك باب الكونتس دى ريسنو أبد الدهر !
لجعل يقول لنفسه :

— سأذهب إلى دارها ، وإذا اتضح لى أن الفيكونتس دى يوسيان على حق ، فأقسم
لانتقام من الكونتس دى ريسنو أيما انتقام . ستجدنى في كل صالون تدخل اليه ، وسأنتقم
الرمية حتى أدل لها مكسبها هذا الذى تبدله فيه
ولكن صوتا من أعماق سريرته هتف به :
— والمال يا صاح ؟ من أين لك به ؟

وامت أمام مخيلته تلك الفخامة والأبهة اللتين تلمش فيهما الكونتس دى ريسنو ، فقال
لنفسه بمرارة :

— ووتران على حق ، فالتراء هو الفضيلة الوحيدة في باريس !
وما بلغت به العربية الغزل ، حتى صمد إلى حجرته مسرعا ليحضر لسائق العربية عشرة
فرنكات ، ثم دخل إلى قاعة المائدة ليجد فيها الغزلاء مجتمعين ، وبادره فوتران بالهجة
ساخرة :

— أراك مكتئباً ياسيدى المركيز ...
— لست في حالة تسمح لى بتحمل دعايات من يروى لهم أن يدعوني « سيدى المركيز » .
فكيف يكون المرء مركيزاً ، لابد له من مائة ألف فرنك دخلا سنويا ...
— أملك ثائر الأعصاب لأنك لم توفق لدى الكونت دى ريسنو ؟ ..
— لقد أوصدت في وجهى بابها لأنى قلت لها أن أباه يأكل على مائدتنا ...
فتبادل الطاعمون جميعاً النظرات . وأغضى الأب جوريو قليلا ثم مسح عينه وقال لجساره
على المائدة :

— لقد ألفت طباقي تدخينك في عبي

فصاح ايجين :

— كل من تعرض للأب جوريو بسوء سينتعرض لنفسي ، فالرجل خير ما جئنا

فأعترضه فوتران بقوله :

— ينبغي لك كي تستطيع حماية الأب جوريو أن تحسن استخدام السيف وإصابة الهدف بالمسدس

— وهذا ما سأفعله فعلاً

— يبدو أنك قد أعلنت اليوم الحرب على الكافة

— ربما . ولكن لست مسئولاً عن تقديم حساب لأي أحد

قبدا الجيو مكهرياً ، ولذا ألتجئ بالصمت . ثم همست مدام فوكير للطالب الشاب في دهشة :

— هو إذن والد كونس فلما ؟

— وبارونة أيضاً

فعلق طالب الطب بيان شوبه على ذلك بقوله :

— لست أستغرب هذا ، فقد غصت رأسه ولم أجد فيها إلا وظيفة واحدة هي وظيفة

الأبوة ، فهو « الأب الأبدي »

ولكن يجب أن يطرب للنكتة لأنه كان مشغولاً بمراجعة إرشادات الفيكونس دي بوسيان

وبالتساؤل عن الطريق الذي يحصل منه على المال

وبدأ الطاعمون ينصرفون حتى بقى وحده مع الأب جوريو ، الذي سأله لجأه بصوت

مخجل :

— لقد رأيت ابني إذن ؟

فأفاق الشاب من سروده وتناول يد الشيخ فتأمله بمحان وأجابه :

— انت رجل شهم كريم النفس . وستكلم عن بنتيك فيما بعد

ثم نهض فتوجه إلى حجرته حيث كتب إلى والدته خطاباً يتوسل اليها فيه أن تتدبر بأية

وسيلة إرسال ألف ومائتي فرنك دون علم والده لكي يتقذ بها نفسه وشرف اسمه من ورطة

وقع فيها ، ولم ينس أن يلوح لها بالانتحار في حالة تأخر ورود المبلغ . ثم كتب لكل من

أخته يطلب اليها أن تسمه بمدخراتها الشخصية الضئيلة بعد أن ضرب لها على نفقة الصرف

الرفيع الذي ينبغي أن يسلم من الأذى

فلما فرغ من الكتابة شعر بالحجل والندم . فهو يعلم أن حالة الأسرة المالية في غاية من

السوء . ويعلم كذلك أن والدته مستعز حزننا مميتاً إذا أعجزها أن تدبر هذا المبلغ كله . ثم إذا

هي وقفت بعد لأي ، فما الهدف الذي من أجله تستغل عاطفتها النبيلة وتضحياتها الهائلة ؟ في

سبيل الوصول إلى غانية تافهة من غانيات باريس اسمها دلفين دي نوسينجن

وترقرقت في عينيه قطرات قليلة من الدمع ، هي حبات البخور الأخيرة التي أحرقها هذا

الفتى على مذبح الأسرة المقدس . وكان باب غرفته مفتوحاً فراه الأب جوريو على هذه الحالة
فدخل عليه وقال له :

— ماذا بك ياسيدي ؟

— آه يا جارى العزيز ! ابني ابن وأنح كما أنك أب . وأنا أدرك شعورك بالقلق على
ابنتك الكونتس انتازى ، فهى ألعوبة بين يدي مخلوق يدعى مكسيم دى ترى ، سيودى
بسادتها

فانسحب الأب جوريو وهو يتم أنفاظاً لم يستطع إيجين أن يبين كنهها
وفى اليوم التالى ذهب راسينيكا فأودع الخطابات صندوق البريد . وتنصفه فنقول أنه تردد
أمام الصندوق لحظة قبل أن يلتقي فيه بالخطابات وهو يقول لنفسه :

— سأصل ! سأنجح ..

وهى كلمة المفامر ، وكلمة الفائدة ، وكلمة كل مقدم على مفامرة . وكم أضاعت من رجال يريدون
كثيراً على من وصلت بهم إلى شاطئ الأمان ...



والد وما ولد !

وبعد بضعة أيام توجه لثوبين إلى دار مدام دي ريبستو ولكنه لم يفكر بضائل ، فقد قبل له منذ أول وهلة أن الكونت والكونتس ليسا في البيت . وأعاد الكرة بعد ذلك ثلاث مرات ليحصل في كل مرة على نفس النتيجة مع أنه حرص على التوجه للزيارة في الساعة التي لا يكون فيها مكسيم عند الكونتس

إذن فالفيكونتس دي بوسيان كانت على حق . وقد أزعجه هذا كثيراً وعكر صفوه فلم يعد هذا الطالب يطلب من العلم شيئاً : فهو يذهب إلى المحاضرات لينت وجوده عند ناداة اسمه ثم ينطلق أنوه ممناً نفسه بأن في الوقت متسعاً للاستذكار قبيل موعد الامتحان

وفي هذا الأسبوع زار الفيكونتس دي بوسيان مرتين ، ولكنه كان حريصاً على ألا يذهب إليها إلا بعد أن يرى عربة الماركيز فاجودا خارجة به من بوابة القصر : فقد استناعت هذه السيدة أن تطيل حلم غرامها أياماً أخرى إذ نجحت في إيقاف زواج الماركيز من الآنسة دي روشفيد . ولكن الواقع أن الماركيز وانساباه الجدد أملوا أن يجدى صلحه مع الفيكونتس في تمويدها فكرة الزواج فتنتهى بالتسليم بالأمر الواقع

واستناعت لثوبين أن يظهر نفسه لديها شديد المصنف والاخلاص وهي في حالة تعد أخرج الحالات في حياة المرأة ، ولكنه اجتهد في هذه الفترة أيضاً أن يدرس ميدان ممرسته القادمة دراسة دقيقة فاتصل برجل يدعى « موريه » هو الذي اشترى من جوريو تجارته وعرف منه جميع المعلومات المتعلقة بحياة جوريو !

فعرف أن جوريو كان قبل الثورة الفرنسية عاملاً أجيراً في صناعة الأطرية . وكان رجلاً ماهراً مقتصداً حصيفاً دؤوباً فاستطاع أن يشتري من مخدومه مصنعه الصغير واستقر بقرب سوق الغلال ، ثم سعى إلى تزعم اتحاد حرفته . وبهذه الصفة استطاع الوصول إلى أصحاب النفوذ في هذه الفترة المتقلبة الخطرة ، فكانت هذه الخطوة هي السبب الرئيسي لأثرائه السريع : ففي الوقت الذي كان الناس فيه يقتتلون على أبواب الجبازين كان جوريو يحصل على قبح بييمه بأسمار خيالية . حتى إذا كون رأس مال ضخم خرج من السر إلى العلن وقام بعملياته على نطاق واسع وبالجراحة التي تنجحها لأصحابها رؤوس الأموال الضخمة . ومن حسن حظه أن ثراه الفاحش لم يعرف أمره إلا بعد أن مرت « الفترة الحرجة » ولم تعد الأموال الضائلة تخبر الويل على أصحابها

ويبدو ان تجارة الفلال قد استولت على كل ملكات الرجل فهو خبيراً بنوعها وطرق حفظها من التلف ومصادر استيرادها بل وكانت له القدرة على التنبؤ بما ستكون عليه المحاصيل من وفرة أو قلة . فهو في هذه القنون كلها بحر زاهر لا أول له ولا آخر يكاد من يراه يدبر دفة أعماله أو يناقش فيها يحسب أهلاً للترجيع في دست الوزارة . ولكنه متى خرج من هذه الدائرة وغادر عتبة دكانه التي كان يقضى عليها معظم أوقاته متكئاً بكفئه الى عارضة بابها ، انقلب سوقياً جلقاً جاهلاً لا قدرة لديه على متابعة استدلال ، ولا حس لديه للذات الفكر والروح ، فهو إذا ذهب الى المسرح غط في النوم

أما امرأته ، وهي الابنة الوحيدة لمزارع غني فكانت لها لديه مكانة تكاد تكون فيها قدسية من قدسيات الكنيسة ، فهو يحبها حباً لا حد له لأنه تمسق فيها الرقة والقوة والحساسية والجمال ، وهي صفات هو في أشد الحاجة إليها . ولكن زواجهما لم يدم سبع سنين ترمل بعدها جوروي غزن عليها حزناً شديداً وبدأت عواطفه الزوجية تخلى السيل لمواطف الأبوة نحو بنتيه

وتقدم إليه كثير من التجار ليصهروا إليه طامعين في تزويجه إحدى بناتهم ولكن الرجل آثر التمرل برأى بينتيه واكتفاء بهما ، وقيل لهذه المناسبة أن الرجل كان قد أقسم لزوجته على الوفاء وأنه حرص على البر بقسمه حتى وهي تحت التراب

وطبيعة الحال كانت تربية البنيتين شيئاً لا منطقي فيه ولا ذوق : فهو غني جداً ولا م له في الحياة إلا تدليل البنيتين والاستجابة لأي رغبة تخطر لاحداهما بشير تردد أو مناقشة . ولكنه جلب لها خير الاسانذة واستخدم لها مرافقة ممتازة علمتهما آداب المجتمع على أحسن وجه . وفيها عدا هذا كاتتا تضيان الوقت في امتطاء الجياد والتزهر في العربة الفاخرة التي اشتراها لها جوروي ، فكأنهما في الواقع عشيقتا نبيل طاعن في السن . فيكن أن تطلب الواحدة منهما أي شيء لتتاله في التو نظير قبلة أو ملاطفة بسيطة . فالرجل كان يحبهما الى درجة التلذذ بالآلام التي كاتتا تسببانهما له

فلا غرو إذن وقد بلغت سن الزواج أن يكون لها الرأي الأول والأخير في اختيار زوجها مع التصريح بأن كل واحدة منهما ستأخذ نصف ثروة أبيها بائنة لها يوم زواجهما . فلما أغرم الكونت دي ريسو بجمال الستازي ، وكانت الفتاة مفرمة بالأبهة والارستقراطية ، لهذا لم تردد في قبوله والاتصال الى محيط الطبقة الراقية . أما دلفين فكانت تحب المسال . لهذا تزوجت من نوسينجن المصرفي الألماني الأصل . وأما جوروي فبق صانع إطرية ، ولكن زوجه بينتيه استنكفا من هذا فألحاً عليه باعتزال المهنة التي كانت حياته كلها . فأذهن الرجل بعد خمس سنين جمع فيها ثروة تكفل له دخلاً سنوياً يصل الى عشرة آلاف فرنك ، ثم أقام في خان فوكير بعد أن وجد بينتيه تضيغان به ، بل تضيغان بزيارته لها في أوقات الاستقبال

وصول المدد

وفي أواخر الأسبوع الأول من شهر ديسمبر تلقى راسيتنيك خطابين أحدهما من والدته والآخر من شقيقته الكبرى ، وقد أخبرته أمه أنها دبرت المبلغ بمونة شقيقتها ، فباعته الذي كان البقية الباقية من يسرة الماضي لكي توفر له المبلغ المطلوب . ثم أخذت تنصحه وتوصيه بالجد والاجتهاد لأن أمل الأسرة كلها معقود عليه . فلما تلا الفتي الخطاب خفقه الهبرات وتذكر منظر الأب جوريو وهو يصهر أدوانه النفضية ويبيعهما لبسدد ديون ابنته ، وقال لنفسه :

— هامي والدتك تفعل فعله بجليها . ولا ريب أن خالتك قد ذرفت دمعاً سخياً وهي تبيع شيئاً من ايقوناتنا الذهبية . فأى حق لك أيها الفتي الزرق في أن تدين انتنازي دى ريتو لأنها تنصر دم أيها في سبيل الأبهة أو لتشتري رضى عشيقها ؟

وأحس الفتي أن ناراً محرقة تستمر في أحشائه ثم فتح الخطاب الآخر فوجد شقيقته تخبره أنها جمعت مدخرها ومدخر أختها وجموعهما ثلاثمائة وخمسون فرنكاً مضجيتين بما تعودن أن تنزلهن لفسيهما من ملابس ...

فأحس ايجين أن كنوز الأرض جميعاً لا يمكن أن تساوى هذا الاخلاص البريء . ولكن فكرة تجمع الف وخمسمائة فرنك في يده سكنت الآلام التي كان يسببها له ضميره . وبدأ يفكر في الحياط الذي سيجعله ينافس مكسيم في الرشاقة والأناقة

وفي هذه اللحظة دخل رسول البريد إلى قاعة المائدة وسأل عن ايجين دى راسيتنيك ثم قدم إليه كيبين تقبلين وكراسة ليوقع فيها بالاستلام . فرشفه فوتران بنظرة نفاذة وقال :

— ها قد صار لديك مانأخذ به دروساً خصوصية في السلاخ

وهم الجالسون بالانصراف بعد انتهاء هذا المشهد ، بيد أن ايجين صاح بفوتران :

— أرجو منك الانتظار

— ولماذا ؟

— أريد أن أرد اليك قرصك الصغير

ثم قدم إليه عشرين سنتياً بعد أن أعطى مدام فوكير كراء الخان بضعة أشهر مقدماً . فقال له فوتران :

— كفى بك لاتريد أن تكون مدينأ لى بشىء ولو كان تافها

— أجل لا أريد ..

ونهب الفتى حلاكيته ليصعد بهما إلى غرفته واسكن فوتران قاليه وهو ينتجه نحوه بتعد:
— أتعلم ياسيدي الماركيز البجل أن ماقلته لي الآن ليس كلاماً في غاية الأدب ..
فأقول راسيتيك الباب وراءه بعد أن خرج متأبطاً فوتران إلى المربع الذي يفصل قاعة
المائدة عن المطبخ والذي به باب يفضي إلى الحديقة ، وهناك قال الطالب على مسمع من «سياني»
الطباخة :

— ياسيد فوتران ، لست مركيزاً ولا أحب أن تدعوني بالماركيز
وقالت الآنة مبشونو معاقه :

— انهما سينفانلان

وصاحت فيكتورين وهي تنهض لتطل على الحديقة :

— هاما تحت الزيزفون ، ولكن الشاب السكين على حق !
فقال لها مدام كوتير :

— هيا بنا نصعد إلى حجرتنا يا ابنتي فهذه الأمور لانعينا في شيء

فلما أخذنا في الصعود لقيتهما الطباخة وقالت لهما ان الرجين يتحدثان تحت الزيزفون .
في هذه اللحظة ظهر فوتران وقال لصاحبة الحان :

— لا تفزعني ياأما فوكير ، فاني سأجرب مسدسي تحت الزيزفون
فضمت فيكتورين يديها وتوسلت اليه قائلة :

— لماذا تريد ياسيدي أن تقتل السيوي إيجين ؟

فتراجع فوتران إلى الورااء خطوتين وحلق في الفتاة وصاح :

— ماشاء الله ! وهذه حكاية أخرى ، انه لطيف هذا الشاب الجليل ، اليس كذلك ؟
لعمري لقد حببت لي أن أسمى في اسمادكا باطلقي الجميلة !

وكانت مدام فيكتورين قد قبضت على ذراع ربيبها وجرتها إلى السلم وهي تهمس في أذنها :
— لله ما أعجب أطوارك اليوم !

وصاحت مدام فوكير :

— لا أريد أن يطلق في بيتي رصاص . أم تراك تريد ازعاج الجيران واستدعاء البوليس
في هذه الساعة ؟

— على رسلك يا أماء !

ثم لحق براستنيك وتأبط ذراعه بغير تكليف وقال له :

— هل أنت متأكد أنني إذا أثبت لك قدرتي على إصابة قطعة واحدة خمس مرات متوالية على بعد خمس وثلاثين خطوة ، سوف لاتخونك شجاعتهك ؟ انك عصبي ونخبيل إلى أنك ستقتل في أول جولة بكل حافة

— أنت تراجع إذن ؟

— لانتعجن مبرى . هيا اجلس على هذا المقعد وأعزني متمك فلدی ما أقوله لك ، فأنت فتی لا أدري ماذا أحبك . بل لعاني أدري ، وإني تخرك بغايي ، فضع قودك على هذه المائدة وهدى . روعك حتى تحسن وزن ما أقوله لك ..

وفعل ايخبين كما أشار عليه فوتران ، وجلس مصفياً اليه بجميع حواسه



الدرس الثانى

قال فوتران :

— لعلك مشوق أن تعرف من أنا وماذا كنت أصنع أو ماذا أصنع الآن .. ولكن لا شأن لك بهذا ، فقد مارست الأيام وأمتحننى الأحداث بخطوب جسام .. حتى لم يمد تاريخى سوى ثلاث كلمات : من أنا ؟ فوتران ! وماذا أصنع ؟ ما يروقى ! وما خليقى ؟ طيبة القلب مع الطيبين ومع من يحيل اليهم قلبي ! حل لهؤلاء كل شئ ، يصفعوننى أو يركلونى فى عظم ساقى ولا أنهارم .. ولكن اذا توسمت الصر فى انسان قلن ينقذه من يدى أحد .. وليس قتل انسان عسيراً على ، بل هو أهون من قلامة ظفر ، بيد أننى أحب إذا قتلت إنساناً أن أقتله كما ينبغي وبموجب أصول المهنة ، فأنا فنان فى هذا الموضوع بل أنا أحب الجبال وأنشده فى كل شئ ، والحياة والموت بعد حظوظ وانفاق . وليست البارزة الالعبة من ألعاب الحظ والمصادفة ، ثم هب أنك قتلتنى ، وهو على تمذره ليس مستحيلاً ، فإذا تراك مستجيز ؟ إنك ستضطرالى مفادرة البلاد والحياة فى المنفى ويبدأ عذاب « بابا وماما » لتدبير النفقات الباهظة فى بلاد الغربة ، « وبابا وماما » ليست حالتها من اليسر والرخاء بمكان ، مدعى يا صديقى الصغير أبيت لك موقفك الراهن على حقيقته : لا بد لك من إحدى خطبتين لا ثالث لهما : إما الاستسلام لظروفك القاسية وإما التمرد ومحاولة الوصول الى شئ ذى خطر فى هذه الحياة الدنيا . فهل تعلم كم يلزمك لكى تعيش الميشة التى تطمح اليها ؟ مايون فرنك دفعة واحدة ، وهذا المليون سأستكفل أنا بتقديمه اليك ! أجل لا بد لك من هذا المليون حاضراً .. فلو ذهبت تحصله بالصرف والأمانة وممارسة القانون لما حصلت عليه أبداً ، فلا سبيل إذن أمامك إلا التمرد والاجترار على القيم والأوضاع منذ الآن .. فأنت الآن فى مفترق الطرق : إما الوصول والتمتع والرفاهية ، وإما لبقاء فى البرك الأسفل من المجتمع خاملاً محروماً . فإذا تزعم أن تصنع إذا فرغت هذه الألف وخمسمائة فرنك ؟ هل تعرف الطريق للحصول على المال فى هذا البلد ؟ لا طريق سوى العبقرية والاصوصية . أما الصوف فلا طائل تحته لرجل عادى . وإذا أردت نصيحتى ، فخير لك أن تكون لصاً من أن تكون عبقرى ! فالعبرى مكروه ، محسود ، محقود عليه ، لأنه ممدن غريب ، ولأنه لا يشارك الناس ولا يشاركونه ! أما الاصوصية فليست معدناً غريباً ، ولا تثير حقداً ولا كراهية ! انها السلاح الذى لا ينجيب ، فعليك به ، لأنك إذا لم تستخدمه ، فلن تخطئ.

ان تحس بفؤادته فوق رقبتك ..! سترى كيف تنفق زوجة الموظف التى مرتبه ستة آلاف
عشرة آلاف على زينتها وثيابها وحدها ! سترى موظفين يتقاضى الواحد منهم ألفاومائتى فرنك
فى السنة ويشترى الضياع وللتاع ! وسترى نساء يهدون عفافهن فى سبيل الركوب فى عربه
« ابن ذوات » ! فإذا كنت تريد الاثراء فلا تنفع بالضربات الصغيره ، بل عليك بالضربات
الكبيره .. واعلم أن قانون الأخلاق فى هذا العصر هو الوصولية ! فالوصول هو القضيـة
يا صاحبي ، والفشل هو الرذيلة والرجس الأكبر !

— ماذا ترى لى إذن ؟

— أرى لك أن تعمل بالاقتراح الذى سأعرضه عليك الآن ..

— وما هو ؟

لدى فكرة متسلطة على دماغى ، وهى الحياة فى ضبعة واسعة يعمل فيها مئات الميـد فى
الدنيا الجديدة .. فأجمع بضعة ملايين من بيع الثيران والطباقي والأخشاب ، وأنا أعيش عبثـة
السلطين ، أمرى نافذ وإرادتى مطلقة .. وأنا يا صاحبي شاعر كبير ولكن قصائدى ليست
كلمات منظومة وإنما هى عواطف وانفعالات وأعمال ، ولست فى حاجة إلا لى مائتى ألف فرنك
لأنتى أريد أن أبدأ بمائتى عبد من الزوج حتى أوفر لنفسى تلك الحياة القبلية التى أحلم بها
فالعبيد يا عزيزى محصول بشرى يأتينى كل عام من ذرائعهم أفضـل به ما أشاء دون أن
يكون لأى وكيل نيابة ان يستأدى عنهم حساباً ! وبرأس مالى هذا من الزوج يتيسر لى فى العصر
سنتين الأولى ان أجنى ثلاثة ملايين أو أربعة .. حتى إذا أصبحت فى تحقيق ذلك لم يأل انسان
من أنا ؟ فانتى سأكون حضرة السيد المحترم « أربعة مليون » من مواطنى الولايات المتحدة !
وسيكون لى من العمر خمسون سنة . وهو عمر ليس منتهى الشيخوخة ، ففى مقدورى
أن أتمتع بالحياة . !

— ولكن أنا ، ما علاقتى بهذا المشروع ؟

— وصلنا ! إذا أنا بمرت لك باثنة عروس قيمتها مليون من الفرنكات ، فهل ترضى ان
تطيق منه مائتى ألف فرنك ؟ عمولة عشرون فى المائة ، فهل هذا كثير ؟ لن يكلفك الأمر
بعد أن تكسب بلطفك وشبابك قلب عروسك سوى إظهار القلق وشروء الذهب وانشفال
البال خمسة عشر يوماً ، وذات ليلة ، بعد القيام ببعض الحركات المسرحية نفقى إليها - فيما بين
قبلتين - بأنتى مدين بمائتى ألف فرنك « يا حبيبتى » ! ونق ان هذه المهرلة تتكرر كل يوم فى
أرق الأوساط ، وما من امرأة تهدر على منع كبس هودها عن الرجل الذى استحوذ على
قلبها .. وهكذا تكون قد بنيت فى ستة أشهر من الزمان صرح سعادتك وسعادة زوجتك
الثابة الرقيقة وسعادة بابا فوتران ، فضلاً عن سعادة الأسرة التى تنبغ بالميش الجاف فى ركن
من أركان الريف ! فلا تنجب مما أعرضه عليك ولا مما أطلبه منك ، فبين سنتين زواجاً موفقاً

يعد في باريس سبعة وأربعون أساسها هذه المساومات

— ولكن ماذا على أنا ان أصنع ؟

— هرباً لا شيء ! اصنع الى : ان قلب الفتاة الفقيرة الكسيرة الحاطر مثله كمثل القطعة من الاسفنج ، فهو أشوق ما يكون الى امتصاص الحب والامتلاء به أبناً وجده حوله .. فإيسر أن تطارح الهوى شابة مستوحشة يستولى عليها اليأس والفقرة دون أن تدرى أى ثروة يجنبها لها المستعمل .. حتى إذا هبطت الملايين على هذه الفتاة لم تتردد في طرحها تحت قدميك كأنها الأصداف التي لا قيمة لها وهي تقول : « خذها يا حبيبي فهي كلها لك ! »

— ولكن أين أجد هذه الفتاة ؟

— إنها بين يديك

— الآلة فيكتورين ؟

— بعينها

— وكيف ؟

— انها تحبك يا صاحبي منذ الآن

— ولبكتها لا تملك دائماً ولا درهماً !

— ها قد بلغتنا مربوط الفرس ، فاعزني سمحك يتضح لك كل شيء : إن الأب تايغير وغد عتيق ، يقال إنه قتل بعض أصحابه أثناء الثورة ، وهو رجل مستقل الرأي لا يقيم وزناً لقيم الاخلاق أمام رغباته الخاصة . وهو مصرفي واسع الثراء وله ابن وحيد يريد أن يورثه كل ثروته من دون فيكتورين . وهذا النفس لا يروق لي شخصياً ، فأنا مثل دونكيشوت أنتصر للضعيف من القوى . فأذا كانت ارادة الله المولى أن يسترد منه ولده هذا ، فلن يجد تايغير مناصاً من أخذ ابنته في أحضانها ، لانه لا بد له من وريث على كل حال . وفيكتورين حلوة رقيقة الجانب لن تخطيء أن تستولى على عقل أيها قلبه . وسيكون عطفك عليها وحبك لها أيام فقرها قد أثر في نفسها فتصير على الزواج منك . هذا دورك يا صاحبي وهو كما ترى سهل جميل . أمادوري أنا فأصعب ، لأنني سأمثل العناية الصمدانية ، وسأقوم بحملة اقتاع المولى المولى باسترداد ابن تايغير . فلي صديق من رجال الحرس موثوق به على استمداد للاقدام على أى شيء ولو كان صلب المسيح اذا أنا أمرته به . وسيتولى هذا الصديق اغراء الشاب تايغير بتجديده أو اهانتته . ثم يحل الاشكال ، وفي الظلام ، دون أن يدري أحد كيف حل ...

— يا لفظاعة ! أعزح يا مسيو فوتران ؟

— رويدك ! لا تتصنع براءة الطفولة . وفكر في الأمر ملياً . فهو ليس على الظاهر من بشاعته بأشبع كثيراً من كبار أخرى سوف تقدم عليها في مقبل حياتك خلى البال . وإلا غفرتي هل هذا شر من الاحتيال على غانية تبيعها ماء شبابك يوماً لتحصل منها على المال ؟ ولا تحاول

أن تنكر أنك فكرت في هذه الوسيلة وفي هذا العمل لأنه من أين لك أن تقدر النجاح في المجتمع والوصول الى الجساء من دون التعويل على بيع هواك للنساء كما تبيع الماهرة هواها ؟ والفضيلة يا صاحبي لا تنجزأ ، فالذى يبيع جسده والذى يهدر الدم البرىء سواء في بعدما من مأزر الفضيلة الناصعة البياض . فليس بين الذى اقترحه عليك وما ستقدم عليه بل تنوى الاقدام عليه كبير فرق . فاما أن تتمسك بمبدأ الشرف والاستقامة ، فملك اذن أن تلبث حيث أنت ولا تنظر الى ما فوقك ولا تطمع في تغيير حالتك ، واما ان تطمع الى التمتع بالدنيا ، فخذها اذن كما مى وتوصل إليها بوسائلها ، واعلم أنه ما من جاه طائل في هذا العالم الا وفي أساس صرحه الشامخ جريمة مستورة نسي الناس وزرها ووضرها بالذى بهرهم من بذخ حاضرها وترفه

— حسبك يا سيدى حسبك ! لا أرب لى في سماع المزيد من اغوائك ، فقد أوشكت أن تفتنى عن نفسى وتشككنى في وجود الماطفة الانسانية ، وهى اليوم حلمى الوحيد وفنى الفريد

— أنت وما تريد أيها الطفل الوسيم . لقد ظننتك أصلب عوداً ، ولكنى كلمة أخيرة...

وثبت عينيه في الطالب الشاب ثم استطرد :

— لقد كشفت لك عن سرى

— ان فنى لديه من الصراحة ما يكفى لرفض ما عرضت على قين أن ينسأه جملة وتفصيلاً

— أحسنت يا فنى ! ولو غيرى لما اطمأن الى لفظ معقول . ولكنى أميل إليك ، ولهذا لا زلت أضغ الأمر بين يديك ، وأمامك خسة عشر يوماً تتدبر فيها فلعلك تتوب الى الصواب...

واستدبره وانصرف



تمام الالهة

وجعل الفنى ينظر الى العمالق وهو يبتعد عنه في هدوء وقد تأبط عصاه ، ثم هز رأسه وقال لنفسه :

— يا له من رجل صعب المراس ! إن ما قاله لى عن وسائل النجاح فى الحياة لا يختلف فى شئ عما قالته لى الفيكوتنس دى بوسيان إلا فى الأسلوب وظاهر العبارة ، فهى امرأة متأنقة أما هو فيأبى أن يعرض الحقيقة إلا عارية مجردة . وبمحه ! لقد نبش قلبى بمخالب من فولاذ ! ولماذا — ليت شمى — أريد أن أتعرف الى البارونة دلقين دى نوسنجين ؟ لقد حرك الرجل بواعنى ودوافعى ، وعرفنى من أمر الخير والشر ما لم تعرفنى به الأسفار الضخام والأساندة الأعلام

ورمى كيسى النقود اللذين أمامه على النضد فى الهديفة واستعطرد :

— ... وكأنى وقد سرقت أخنى هذا المال لأصرفه فى المذات . فأنا إذن قد جانبت طريق الفضيلة وانتهى الأمر ، وباعدت بينى وبين أهل الخير والبر ... ولكن ... من ذا من الناس يستمسك بمجل الفضيلة ، وإن كانوا جميعاً ينشدقون بها ؟ ومن طلب الجليل من الأمر لم يأبه أن يخوض اليه الأوحال ... ولكن لا ! وألف لا ! فأ أجل أن تتقدم بالمرء السن فىستعرض حياته أمام عينيه فاذا هى بيضاء من غير سوء ، طاهرة كزنايق الحقل ! سأسلك الطريق الشاق الطويل ، طريق العمل الشريف ، فأنا والحياة مثلنا كمثل خطيبين ، ينبغى أن يمتصما بالظهر ويتجنبنا كل ما يشين ، حتى تقوم الحياة بينهما على الاحترام للتبادل والصفاء الكامل ... رباه ! إن رأسى تدور ، فما أدرى أيا ن أسلك فى شماب هذه الحياة التى تبدو لى كالتيه ..

وأخرجته الطباخة سيلفى من صمته ، منبهة إياه إلى حضور الحياط الذى أوصاه أن يصنع له كسى لائقة على آخر غرار . فلما لبس واحدة منها ونظر الى نفسه فى المرآة قال :

— لقد أصبحت لعمرى لا أقل بهاء عن مكسيم دى ترائى ! فإنى أبدو وجيهاً شريفاً فى هذا الكساء !

ولم يلبث أن دخل عليه الأب جوريو حجرتة وقال له :

— لقد سألتني يا سيدى عن البيوت التي تتردد عليها مدام دى نوسينجين . . .
 — أجل . . .
 — لأنها ستذهب يوم الاثنين المقبل الى الحفلة الراقصة التي يقيمها الماريشال كاريليانو . فاذا كنت ذاهباً اليها ، فيستنى لك أن تخبرني كيف بدت بنتاى قيتها . . .
 — ولكن كيف عرفت هذا أيها الوالد العزيز ؟
 وأخذ يبد الشيخ فأجلسه قرب المدفأة ، فأجابه في سرور ظاهر :
 — أفقت الى به وصيفتها ، فأنا أعرف جميع أخبار بنتى من وصيفتيها « تيريز » و « كونستانس » .
 فكان الرجل الشيخ عاشق مدله لم ينل الخطوة ولكنه يتعلق بأخبار الحبيبة وينتسبها من أفواه الخدم ! ثم استطرد الشيخ :
 — إني أغبطك ، فانك أنت ستراها . . .
 — لا أدري . . . سأذهب على كل حال الى الفيكونتس وأرجوها في تقديمي الى الماريشالة . . .
 وشعر الشاب بالسرور بداخله لفكرة مثوله بين يدى الفيكونتس في زيه القشيب الأنيق ، فأثناء هذا الزهو كل ما كان يجيش في خثايه من ندم وتأنيب ضمير ، ونسى عواطفه الطاهرة التي كانت تتحسس للفضيلة العذراء ! فإذ رأى نفسه أنيقاً وجيهاً حتى هانت عليه كل هذه النظريات ، ورأى متاع الحياة وغرورها كفوا للخطيئة والرزيلة . ألا ما أضغف الانسان !
 وكان الجاران ، الشاب اعجبين والشيخ جوريو ، قد تقاربا كثيراً في الأيام القليلة الماضية ، لأن الشيخ قد أدرك بحاسة مجهولة لديه كحاسة الكلب حين يعرف صديقه من عدوه بنير تفكير . ولكن هذا التقارب لم يصل بهما بعد الى مرتبة التكاشف بالحفايا ومكنونات الطوايا . فلم يحدثه الشيخ عن بنتيه إلا فيما يتصل بما ورد على لسان الشاب على المائدة عقب عودته من زيارة الكونتس دى ريتو . فقد زار الشيخ الشاب في اليوم التالي وقال له :
 — من أين أتاك يا سيدى العزيز أن الكونتس دى ريتو أعرضت عنك أو غضبت عليك لأنك ذكرت أمامها اسمي ؟ إن ابنتي تحبني كل الحب ، وإنى بأبوتهما جديسيد . ولكن صهري ما اللذان أساء معاملتي وأشاعا عني وصداً صدوداً ، فلم أشأ أن أعكر صفوح حياة ابنتي ، وفضلت التضحية من جانبي ، ورضيت ألا أراهما الا خلسة . وهذا الاختلاس للذة الحلال فيه من المتاع ما لا يحطر يال الآباء الذين يرون بناتهم جهاراً . أما أنا فليس لي الى ذلك سبيل . أتدري ماذا أصنع إذن ؟ إذا كان الجلو صحواً ذهبت الى « الشاتريليزيه » — بعد أن أكون قد عرفت من وصيفتيها أنهما ستذهبان الى هناك — وأنتظر في الطريق لأراهما حين تمران في عربتيهما الإطهمتين ، وزيتنهما الباهرة ، وأسعد بابتسامتي تلفيانهما الى ، فنضى حياى كأن شعاعاً من

الشمس قد دخل الى قلبي المظلم ! ثم أنتظر مرورها مرة أخرى في طريق العودة ، لأسعد برؤيتها مرة أخرى وقد تورد وجهها وأجدت عليها الزهرة في الهواء الطلق. ويدخلني الزهو والاضطراب حين أسمع من حول عبارات الإعجاب بهما ويجهلها القنان ! فهما لحي ودي ، ومن جبهما أحب الخيل التي تحملهما أو تقلهما ، وآعنى لو كنت الكلب الصغير الذي تحملانه فوق ركبتيهما فلم تعد لي حياة إلا حياتهما ، ولا متعة لي إلا أن أراها تتمتعان ... فكل امرئ له طريقته في الحب ، وتلك طريقتي ، ولا ضير منها على مخلوق ، فلماذا لا يدعني الناس آمناً في سري ؟ فهل أفتأت على أحد بتسللي تحت جناح الليل كي أرى ابنتي في نجوة من الناس ، وها خارجتان لحضور حفلة راقصة أو للذهاب الى الأوبرا ؟ وبألسا من مصيبة إذا وصلت متأخراً وقيل « إن البدة قد خرجت » .. فقد ظلت مرة في الطريق الى الثالثة صباحاً لكي أرى « نازي » حين تعود من السهرة ، لأنني لم أكن قد رأيتهما منذ يومين ! .. ولكن إياك أن تظن بهما الجحود ، فهما تريدان اغراقي بالهدايا والألطف ، ولكنني أنا الذي أرفض ، وأقول لها : « وفرا تقودكما . فإني حاجة الى هذه الأشياء في هذه السن . لست بحاجة الى شيء » .. وهذا حق ! فإنا حتى يضيع المال في حمائحي ؟ ما أنا إلا جيفة لا قيمة لها في ذاتها ، لأن روحي موزعة على جسدي ابنتي هاتين ! .. وأرجو إذا أقيمت مدام دي نوسنجن أن تصارحني أي ابنتي أبهى جمالا وأبدع حسناً ... »

وإذ رأى الشاب يتأهب للخروج للزهرة في حدائق التويلري حتى يحين موعد الفيكونتس دي بوسيان ، استأذن في الانصراف وهو لا يزال يتم حديثاً غامضاً عن بنته



خرج الفتي الى التويلري بقصد الزهرة وقطع الوقت ، فكانت هذه الزهرة هي القاضية على البقية الباقية من صوت الضمير فقد خنفته خنقاً ، فأت دون أن تند عنه نامة ! ذلك أن نقرأ من السيدات المتزهرات هناك التفتن إليه معجبات ، لأنه كان غصن الاحاب ، أنيق الثياب .. فاستشعر من ذلك زهواً كاد يخرج به عن طوره ، ولم يعد لشقيقته ذكر في ذهنه المنتشى بهذا النصر السهل !

فلما قاربت الساعة الخامسة ، توجه الى قصر الفيكونتس دي بوسيان ، فوجد في انتظاره ضربة من تلك الضربات التي تحطم الآمال وتذل الكبرياء . فان الفيكونتس التي كان يجدها على الدوام باسمه الثغر ، مهذبة ، حفية ، لقيته في هذه المرة بجفاء وضيق ، وقالت له في خشونة سافرة :

— يستحيل على أن أجلس إليك يا مسيو دي راستنيك ، في هذه الساعة على الأقل ، فاني مشغولة ...

وكان هذا حرباً أن يردده عن بابها ، هذه الساعة على الأقل . ولكنه كان قد تعلق بالنجاح

وبدا في سلوك طريق « الوصول » ، ففمن من كبريائه ، لأنه كان مثلهما على الذهاب الى حفلة
دوقة كاريليانو بأى شكل ... فبلغ الاهانة وقال الفيكونتس :
— سيدتى ، لولا أن الأمر يتعلق بموضوع عاجل هام ، لما أتيت إليك وأنقلت عليك...
فاغفري لى ، واسمعى لى بفرصة أخرى ، أراك فيها ... فأتى مستعد للانتظار ...
نفت حدة الفيكونتس شيئاً ما ، وقالت له :
— ليكن . تعال لتمعنى على مائدتى هذه الليلة ...
فلما كان المساء وجاء الى قصرها وجدها قد استردت اشراقها ورقتها ، فقادته الى فاعة المائدة
حيث كان الفيكونت فى انتظارها ! وكانت المائدة وأدواتها على مبلغ من النخامة والترف لم يكن
يخطر للفنى ببال ... فاعصر عصر الأناقة فى الضمام ... هذا الى أن الفيكونت مشهود له بأن
لذته الوحيدة فى الدنيا هى الأكل ! فائدتها الزيتان ، مزية الكيف ومزبة اللحم فى وقت واحد...
وقالت الفيكونتس لزوجها أثناء الطعام :
— هل سأتى معى الليلة الى الأوبرا الايطالية ؟
— ليس أحب الى نفسى من هذا كما تعلمين يا عزيزتى ، ولكنى للأسف مرتبط بموعد
آخر ... فهل « داجودا » ليس معك الليلة ؟
— كلا ...
— إذن خذى السيودى راستنيك معك ...
فظهرت الفيكونتس الى لميجين وابنت ...



فى الاوبرا الايطالية

وأقلته مع الفيكوتنس عربية أنيقة سريعة إلى مسرح الأوبرا الإيطالية . وما دخل وراءها إلى مقصورة من المقصورات الأمامية حتى وجد نفسه هدفاً للمناظير الكبيرة التي سلطت عليه من كل صوب ، غلب اليه أنه فى مملكة من الممالك المحجورة
وفلت له الفيكوتنس :

— انظر هامى مدام دى نوسنجن فى مقصورتها التي تبعد عنا بثلاث مقاصير ، أما أختها الكونتس دى ريسنو فى الجهة الأخرى وبصحبتها مكسيم دى ترى والواقع أن الفيكوتنس كانت تذرع الفاعة بمنظارها مظهرة عدم الالتفات إلى البارونة دى نوسنجن ، مع أنها لم تكن غافلة عن أى حركة من حركاتها . وأما الفنى إيجين دى راسنيك لم تكن له عينان إلا لتأملها والتعديق فى محاسنها ، وقد انشرح صدر البارونة لهذا الاهتمام لذى يديه نحوها ابن عم الفيكوتنس دى بوسيان الشاب الوسيم ذو الحسب . بيد أن الفيكوتنس نبهته بقولها :

— إذا ظلت تركز فيها أنظارك على هذا النحو أثرت فضيحة وانفاس . وإن توفى فى المجتمع إذا كنت عازماً على أن تاتى نفسك على الناس القاء كأنك تسقط فوقهم من حالى —
يا بنت العم . لقد بذلت لى العون وأحطت برعايتك وحمايتك حتى الآن ، فهلا آتت صديقك لئننى أرى قلبى قد شغل هذه المرة —
بهذه المرأة ؟

— أجل ، والدوقة كارايانو ستقيم حفلاً راقصاً ستحضره البارونة دى نوسنجن ، فأكون شاكراً لو قدمتنى للدوقة كي تدعونى إلى حفلتها الراقصة ، فينتسنى لى أن أقابل البارونة هناك وأصرب صربى الأول

— ليكن ، فيظهر أنك ستوفى فى هواك . فهذا دى مارساى صاحب البارونة مشغول عنها فى مقصورة الأميرة جلاتيون . فالبارونة تعاني فى هذه اللحظة نيران العيرة . وايت هناك لحظة أصاح من هذه اللحظة للتقرب من امرأة ، ولا سيما إذا كانت امرأة رجل من رجال المال ، فهاتيك النساء جميعاً يحبين الانتقام حباً جا —
وماذا كنت تفعلين لو كنت فى مكانها ؟

— أنألم فى صمت

— وفى هذه اللحظة دخل المفصورة الماركيز داجودا فأشرق وجه الفيكونتس اشراقا دل
ايجين على أنها تحب الماركيز حباً حقيقياً ليس من قبيل خلاعة الباريسيات ومجونهن الشائع .
وتغلى الشاب للماركيز عن مقعده ، فابتسمت له الفيكونتس شاكرة هذا الصنيع الذى أمله
اللباقة . ثم قالت للماركيز عند انتهاء الفصل الأول :

— أظنك تعرف البارونة دى نوسنجن معرفة تسمح لك بتقديم المسبو دى راستنيك اليها
— طبعاً . . وسنسر كثيراً ولا شك بمعرفة الشيفاليه دى راستنيك

ونمض البرتغالى الجليل فتأبط ذراع الشاب وصحبه إلى مفصورة البارونة ، فقال لها :
— لى عظيم الشرف ياسيدتى البارونة أن أقدم اليك الشيفاليه ايجين دى راستنيك ، من
أبناء عمومة الفيكونتس دى بوسيان ، فقد كان تأثيرك فيه عظيماً بحيث حملنى على اتمام أسباب
السعادة له بتقريبه من موضع تقديسه

فابتسمت البارونة وأشارت إلى الشاب بالجلوس فى مقعد زوجها الذى لم يكن حاضراً تلك
اللمعة ثم قالت له بلطف :

— لا أجد لدى المرأة ياسيدى كى أطلب اليك البقاء معى ، فإن الرجل الذى يعمده الحفظ
يقرب الفيكونتس دى بوسيان لا يرضى عن قربها بديلاً
فهمس لها الشاب ضاحكاً :

— ولكن يبدو لى ياسيدتى أننى إذا أردت أن أرضى ابنة عمى ، فيحسن لى أن أبقي
بجوارك . فقبل وصول الماركيز كنا نتحدث عنك وعن شخصيتك الممتازة
— استبقى معى حقاً يا سيدى ؟ إن هذا يسرنى كثيراً لأن أختى الكونتس دى ريسنو
أطرتك لدى كثيراً حتى أصبحت فى أشد الشوق للتعرف بك
— لقد خدعتك إذن ، فهى قد حرمت على بيتها
— وكيف كان ذلك ؟

— سأروى لك السبب ، واستمعك المقو أن أفضى اليك بهذا السر . فأنا جار والده
الفاضل فى الحان الذى يقيم فيه . وكنت أجهل أن الكونتس دى ريسنو ابنة . فبدر منى
دون قصد اشارة اليه بحسن نية أغضبت شقيقتك وزوجها . وقد عجبت ابنة عمى الفيكونتس
والدوقة دى لانجيه من العقوق . وسمعت بهـ هذه المناسبة من الفيكونتس مقارنة بطريقة بينك
وبين شقيقتك علمت منها مبلغ حبك وبرك بهذا الوالد الفاضل . ولست أدري كيف لا يجب ،
ولاسيما منك ، فهو يمدك حباً

— أشكرك كثيراً ياسيدى ، وأحسب أننا سنكون من خيرة الأصدقاء
وشرعت البارونة تسفه ممالك شقيقتها نحو والدها ، وكيف أنها تست شخصياً آلاماً جسيمة

حين حملها زوجها البارون على عدم استقبال والدها إلا في الصباح
— انك ياسيدتي مثل الطيبة اللاتينية ، وقد أعجبت بك قبل أراك لما سمعت به من فيض
الحبة البنوية . ولكن لم أكن أتصور أبداً أن يبرز جلالك الباهر صفات خلقك النبيل وقابك
الكريم . حتى إذا دخلت القبة هذا المسرح ووقع نظري عليك لم أستطع أن أحوله عنك !
فاضطرت الفيكونتس إلى لفت نظري وصرقي عن التحديق فيك على هذا النحو . ولكنها
لا تدرى إلى أي حد تجذب محاسنك الأنوار . فهاتان العينان الساحرتان ، وهاتان الشفتان
القرمزيتان ، وهذه البشرة الناصعة البياض ، وهذه الفتنة التي تشع من كيانك كله ... عفوكم !
لأن أهدى ، أعلم هذا ، ولكن دعيني بربك أمضي في الهديان ، لأنه يتخفف بعض ما بين من
الهيان

وليس في الوجود ما ينشرح له صدر المرأة مثل سمائها عبارات الثناء . فأشد النساء ورعا
وأعظمهن تقوى لا تنكره هذا الحديث وإن حرم عليها أن تستجيب له . فغير غريب أن تجمع
البارونة الشاب إيجين بابتساماتها ، وهي تختلس النظر في الحين بعد الحين إلى حيث يجلس
دى مارساي في مقصورة الأميرة جلانيون — وهكذا بقي الشاب في حضرتها يتلو عليها آياته
ويطلق البخور بين يديها إلى أن حضر زوجها البارون ليصحبها إلى البيت
وما درى الشاب المسكين أن البارونة كانت شاردة الذهن وهي تتظاهر بالانصاف إليه ، فقد
كانت تنتظر من دى مارساي خطاباً من تلك الخطابات التي تمزق القلب وتفتت الأكباد .
ولكن الفتى الربيعي ظن أنه وجد حفوة لدى البارونة حقاً وصداً ، فعاد إلى الفيكونتس متهاول
الأسارير ، فصحبها إلى عربتها ، ثم مضى إلى الحان وكأنه يحاير في الهواء من فرط السرور
والاستبشار



أشجان والد

وما بلغ الفتى الحان حتى سعد السلم وثبأ ثم طرق باب حجرة الأب جواريو طرفاً شديداً ،
وما دخل عليه حتى ابتدره بقوله :

— لقد رأيت مدام دلفين ياجارى العزيز

— أين ؟

— فى الأوبرا الإيطالية

— وهل تمتت بسهرتها ؟ حدثنى عنها

ورقد الرجل فى فراشه ، وسنحت للفتى الفرصة لى يرى الجحر الذى يمشى فيه والد تلك
التي بهرته منذ قليل برفها وبذخ ثيابها وزينتها . فلم تكن على النوافذ ستائر ، وآثار الرطوبة
تبدو واضحة فوق الورق البالى الملصق فوق الجدران ، والفراش الذى يرقد فيه الشيخ بعيد عن
توفير الراحة لجده الواهن ، والأغطية القليلة عبت بها يد البلى . فامتلا الفتى امتعاضاً واشفاقاً
على الرجل . ولكن الشيخ لم يلحظ لحسن الحظ ما ارتسم على وجهه ، لأنه كان عارفاً خواطره
التي تحوم دائماً حول بنتيه ، فسأل ايحى فى مليحة تقرب من البلاءة :

— أيهما وجدتها أقرب إلى القلب ، مدام ريسنو أم مدام دى نوسنجن ؟

— بل أفضل مدام دلفين لأنها تحبك حباً جما

فأخرج الشيخ ذراعه من تحت الفضاء وضغط على يد الشاب بحرارة وهو يقول له فى
تأثر بالغ :

— شكراً لك . وماذا قلت لك عني ؟

فأعاد عليه الفتى ما قاله ابنته عنه مزوفاً منمقاً كي يجبر خاطره الكبير ، والشيخ مصغ اليه
كأنه يستمع إلى وحى مقدس ، فلما فرغ الفتى قال :

— أجل ، ان هذه الطفلة العزيزة تحبني كثيراً . ولكن لانصدق ما قالته لك فى حق أختها
استنازى . فلاختان بينهما منافسة شديدة أيهما تحبني أكثر من الأخرى . وأنا أعلم عن يقين
أن مدام دى ريسنو تحبني حباً شديداً ، فأنا أبوها وأعرف قلبهما ، ولو كان لهما زوجان من
ذوى الملووب الكريمة والمرائر الطيبة لكنت أسعد خلق الله . ولكن السعادة الكاملة لا
تكتب لأحد فى هذه الحياة الدنيا . . . فقد كان يكفينى من الدنيا أن أعيش فى جوارهما ، لا لشيء .



وقال الفتى للاب جوريو : كيف تعيش في مثل هذا المكان ؟

إلا لأراها تغدوان وتروحان ، فأسمع صوتهما وأحس بأنس قربيهما ... ولكن خبرني ، هل كانتا في زينة مليية ؟

— أجل ... ولكن خبرني أنت ياسيد جوريو ، كيف تكون لك بنتان على هذا القدر من الفنى ، وتعيش أنت في مثل هذا المكان ؟..

-- وما حاجتي إلى أكثر من هذا ؟ ان حياتي قد اختارت في هاتين البنتين . فإذا نعمتا بالحياة ، فاني ناعم البال ، وإذا كانت لهما بسط من حرير ، فإ يضربني أن تكون أرضي عارية أبس فوقها بساط . وإذا كانت ملابسهما من حرير ودمقس واستبرق ، فإ يضربني ماذا أكتسى وأين أضح رأسي ! فاني وايم الحق لا أشعر بالبرد إذا هما نعمتا بالدفء ، ولا سبيل للأحزان إلى نفسي ما شعرتا بالبشر ... ولكنك لا تدرك معنى ما أقوله لك الآن إلا حين تغدو أيا ، حين تشد ستعرف قيمة النافه من بقم بنيك ، وسيستبد بك الزهو لأنهم خرجوا من صلبك ! وستحس أن دمك يتحرك في عروقهم ، وأن الدم الذي في عروقك يضطرب بأفعالهم ، وأن أعصابك تتحرك بحركات جوارحهم وخطو أقدامهم ... فتنفرة حزن أو كتابة من إحدى هاتين البنتين تكفي لتجديد دمي ! فكيف تأسى على حياتي ، وأنا رجل أحبي بهذا الحب الأبوي ثلاثة حيوات لا واحدة وكفى ! أجل يا صديق ، انني لا آتني شيئاً سوى سمادة بنى . فدفن هذو إذا وجدت رجلاً يسعدنا وبشرها بالنشوة التي تحسها المرأة إذا شعرت أنها محبوبة ومعتوقة باخلاص ... أقول أنني مستعد أن أسحق بنفسى حذاء هذا الرجل . . . وأن أكون له بمثابة الخادم من السيد ! ولكن وا أسفاه ! فقد علمت من وصيفتها أن هذا السيد دى مرساى إن هو إلا كلب فقير ، فهو يسومها عذاب المهجر ، حتى لقد قام برأسي أكثر من مرة أن ألوى عنقه فأخذه يدي ! ياله من بهيم : أمثل هذه الجوهرة الخلوة بين النساء لا تعبد حياً ! إن صوتها كغناء الببل ، وقدما كأنموذج الفنان الكامل ... ولست أدري ماذا قام برأسها حتى رضيت بهذا الألفاسى المتكبر دى نوسنجين بعلاها من دون الرجال جميعاً .. أفعد كان يلزم لكاتبهما زوجان طيبان جميلان لطيفاً المعشر ... ولكنهما تصرفنا على هواهما ...



وكان الأب جوريو في « مرافقته » هذه رائعاً في بلاغته ، لأنها بلاغة الحديث الصادر من القلب نصاً . فإ أقدر العواطف الصادقة على أحداث المعجزات ، فهذا الرجل النذر الكلام ، الثقيل اللسان ، قد جعلت منه عاطفته الكبيرة إنساناً رائعاً وخطيباً مفوهاً ، فإطلق لسانه ، وصار في نبرة صوته غنى ، وأشرق وجهه وخلفت له شخصية قوية من المدم ... فأخذ الفنى بما رأى منه وما سمع ، فقال له :

— أظنه لا يسيوئك أن تعلم أن مدام دلفين ستقطع صلتها بهذا السيد دى مرساى ، لأنه تركها لينصل بالأميرة جالانيون ... وأنتى وقعت منذ الليلة في هوى مدام دلفين ... وأنتى قد

لقيت قبولاً لديها ، وأنها دعتنى لزيارتها عصر السبت ، بعد غد ...
— لن نجد أحب لك منى ياسيدى إذا حظيت برضاها عنك ! فأنت طيب السريرة ، ولا
أحبك ستسومها العذاب . أما إذا أسأت إليها فأنى قاتلك !.. آه ! أراى أهرق ، فمفوا...
وماذا قالت لك عنى ؟..

— حملنى اليك قبله ...

— يارهاك الله ... طابت ليلتك يا جارى العزيز ، فالبرد فى حجرى شديد ، وأراى أبقيتك
أكثر مما ينبغي ... فرافقتك السلامة ... وجزاك الله عنى خيراً ، فقد أسعدتنى بهذا الحديث
عن أحب خلق الله إلى قلبى ... ولن أنسى لك هذا الفضل ، بل أنى سأسعد كلما وقع نظرى
عليك ، لأنك تحمل لى شيئاً من ريع ابنتى العطر !
... وآوى الفتى إلى فراشه ، وهو يقول فى نفسه :

— يا للرجل المسكين ! إن حالته تفتت الأكباد وتلين القلوب التى قدت من حجر صلد ...
وابنته التى يعيدها لم تذكره لى بكلمة !

والواقع أن الأب جورىو قد سعد فعلاً بهذا الحديث ، ولا سنيا لأنه اكتشف فى جاره
الشاب صديقاً حقيقياً يكشفه بنجوى نفسه ويفهم عنه فقد نشأت بينهما تلك الصلة الوحيدة التى
يمكن أن تصل هذا الشيخ بأى إنسان على وجه البسيطة : وتلك الصلة هى الاهتمام المشترك
بأحدى بنتيه

ويقولون ان القلوب تحسن ضرباً من الحساب والاستدلال لا يحسنه منطق العقول ، وإنها
لا تخطئ أبداً فى معرفة أهدافها ، وهذا قول يطابق الواقع تمام المطابقة .. فهذا هو الأب
جورىو وقد حرم نعمة قرب بنتيه بحس دون تفكير فيصيب الحسد ان جاره الشاب إذا
توتقت علاقات الهوى بينه وبين دلفين ، فان ذلك سيؤدى بطبيعة الحال الى زيادة حظوة الوالد
لدى ابنته ويوثق اتصاله بها ..



وفى الصباح التالى وقد جلس الجميع الى مائدة الافطار جعل الأب جورىو يلقى على جاره الشاب
نظرات تفيض بالحنان والتعلق ، حتى لقد لاحظ النزلاء أن القناع الجامد قد زال عن وجه الشيخ
الذى لم يكن يلقى الى أحد منهم بالا

أما الفتى فانه كان قد جال به فكره قبل النوم فى الليالين الشقى التى تنبسط أمامه ، وفكر
فيما فكر فى فيكتورين تاغير وبائتها الضخمة التى حدثت عنها فوتران ، وفى هذا الصباح التفت
نظراته بنظرات الفتاة صدفة ، وشمرت الفتاة بالانجذاب بأناقة الفتى فى زيه الجديد القشيب ..
وأدرك الفتى من نظرتها أنه غير بعيد عن قلبها ولا عن أحلام خلوتها ، وأحس كأن منادياً
يناديه من فجع عميق :

— ثمانمائة ألف فرنك يا هذا بعد عمولة فوتران !
ولكنه أصر أذنيه عن هذا النداء وعاد الى التفكير في ذكريات الأمس الجميلة وما حسب
أنه قد أصابه من حظوة في عيني البارونة دلفين دي نوسنجن فقال لوالدها الذي كان بجواره
على المائدة :

— كانوا يقدمون بالأمس في الأوبرا الإيطالية رواية حلاق اشبيليه لروسين . ولم أسمع
وايم الحق أعذب من هذه الموسيقى . الا إن من لديه مقصورة دائمة في الأوبرا الإيطالية لسعيد
فتلف الأب جوريو هذه الكلمة كما يتلف الكلب المدرب إشارة من مولاه .. ثم استطرد
الشاب هامساً في أذن الشيخ :

— ولعلك ستلقى مدام دي نوسنجن قريباً ، ثقي أنها ستلقاك بذراعين مفتوحين ..
لكي تعرف منك المزيد عن شخصي .. وقد نما الى أنه يهمها كثيراً أن تدعى الى بيت بنت
عمى الفيكونتس دي بوسيان ، فلا تنس أن تخبرها أن حبها عندي كفء لإنالتها هذه الأمنية



بداية حب

وخرج ايجين من الحان بعد الافطار مباشرة ، فجعل يصرف الوقت في النزهة والتسكع ، لأنه كان يضيق بهذا المنزل الكئيب ، ولأنه كان مكفوقا عن الاستقرار بتلك الحمى المستمرة بداخله ، والتي يعرفها تمام المعرفة أحداث الشبان حين تتلاشى أمام مخيلتهم الزنة أحلام خلافة فلما عاد إلى الحان وجد الأب جوريو في انتظاره ، فمآ رآه داخلا حتى قال له وهو مهتلل الوجه :
— هاك خطابا منها ... يالاحظ الجليل !

وفض ايجين الخطاب ، فذا السطور التالية :

» سيدى

» قال لى والدى أنك تحب الموسيقى الإيطالية . وإنه ليسعدنى أن تشرفنى بقبول مقعد فى مقصورتى ، وستقدم يوم السبت أوبرا جميلة ، وإنى واثقة أنك سوف لاترفض هذه الدعوة . والبايون دى نوسنجن ينضم إلى فى التوجه اليك بالرجاء لتناول العشاء تلك الليلة . فاذا تفضلت بالقبول أعقبته من اله احب الزوجى الثقيل الذى يحتم عليه مصاحبتى إلى الأوبرا وتقبل تحباتى
دلفين دى نوسنجن »

فقال الفتى فى نفسه :

— ما من امرأة تلقى نفسها هكذا على شاب من أول وهلة . فلا ريب أنها ترى إلى استفلاى فى إثارة غيرة صاحبها الهاجر دى مرساى كى تسترده فهى المكيدة والانتقام لا الحب والهيام ...

وقطع الأب جوريو عليه حب التفسير بسؤاله :

— فيم تفكر ؟

وكان قد غاب من علم الفتى مبلغ ما للمظاهر من سلطان على نساء المجتمع فى باريس ، حتى أن زوجة رجل لايمدو أن يكون من رجال المصارف تطيب نفسها بالافدام على أى تنضحية فى سبيل الوصول إلى شرف التردد على قصور الأشراف المروفين فى ضاحية سان جيرمان . ولم يجد الفتى مانعا من الاستفادة من الطرف المواتى ، فأجاب على سؤال الأب جوريو بقوله :
— طبعا سأذهب ...

وهكذا ساقه حب الاستطلاع إلى دار مدام دى نوسنجن ، فى حين أنها لو كانت تجاهلته

أو ازدردته لكانت العاطفة هي باعته على هذه الزيارة وليس مجرد حب الاستطلاع ، ومع ذلك فانه لم يخل من تشوق ولهفة على الذهاب في الموعد المضروب في اليوم التالي

ووصل راستنيك إلى شارع سان لازار ، فوجد دار البارون واحدة من تلك الدور الجديدة التي تنم عن ثروة مستعذثة ، ومى مزوقة ومزركشة في تكلف وإسراف . وكانت البارونة جالسة متكئة في صالون صغير يشبه في زينته اللغامي إلى حد كبير . فخر هذا في نفس الشاب الذي كان يحسب أن مجرد حضوره كاف لادخال البشر على قلب أى امرأة . لهذا قال لها :

— ليس لي كبير حق في معرفة أسرارك يا سيدتى ، ولكن في مرجوى على الأقل أن تصارحني ببساطة إذا كان وجودى معك ينقل عليك

— بل ابق .. فانك إذا مضيت بغيت وحدى ، ذلك أن نوسينجين سبتعشى في المدينة ، وأنا لا أريد أن أنفرد بنفسى ، فالتسلية لازمة لي أشد اللزوم

— ماذا بك ؟ خبريني وإلا طننت أن لي ضلعاً في همومك

— يا صاحبي هذه هموم ناشئة عن اختلافات بينى وبين زوجى . ألم أقل لك أمس الأول إننى لست سعيدة في حياتى ؟ انى . قيدة بقيود من ذهب ...

— وماذا ينقصك ؟ فأنت جميلة وشابة ومحجوبة وتغنية ..

— دع الحديث عنى جانباً . فقد أتيت لتعشى على انفراد ثم نمضى معاً لسماع الموسيقى . فغيرنى هل تروق زيتيتي في نظرك ؟

وقامت لتزييه ثوبها من خلف ومن قدام ، وهو من الكشمير الأبيض تزييه قوش فارسية من آنقى ما يكون

— كم أتمنى أن تكونى لي وحدى ، فأنت فاتنة !

— ان تهنا بهذا لو تحقق ، فانى امرأة شقية

— ما أشوقنى الى معرفة علة كآبتك

— لو صارحتك بها لتجنبتنى

— اسمعى ! إذا كانت تنقل على صدرك المهدوم فلن تجدى خيراً منى للافضاء بها اليه ! فأنا أريد أن أبرهن لك أنني أحبك لذاتك ، فأما أن تكاشفينى بآلامك حتى أجتهد في القضاء عليها ولو كلفتني قتل ستة رجال ، وإلا فارقتك إلى آخر الزمان ففطرت لها فكرة يائسة جعلتها تدق جبهتها بيدها وهي تصيح :

— سأضعك موضع اختبار . أجل ، لم يعد أمامى سوى هذه الوسيلة بالذات ودقت الجرس فدخل الوصيف وأمرته بإعداد عربة البارون لكي تخرج فيها . ثم نهضت

وأشارت إلى إيجين أن يتبعها وهو يحب نفسه في حلم ، فاستقلت معه عربة زوجها وصاحت بالسائق :

— الى الباليه رويال بالقرب من المسرح الفرنسي
وكانت طول الطريق تبدو مضطربة ورفضت الاجابة على الأسئلة الكثيرة التي ألقاها عليها
إيجين لما ركبته من الحيرة . .

فلما وقفت العربة حملت البارونة في الشاب ثم سألته :

— أتعجبني بإخلاص ؟

— لا شك في ذلك

— ألى درجة عدم لئامة الظن بى مهما طلبت اليك ؟

— نعم . . ولا ريب

— وهل أنت مستعد لاطاعتى طاعة عمياء ؟

— كل الطاعة . !

— هل تتردد على موائد اللعب ؟

— على الاطلاق

— آه . لى أنتفس الصعداء لهذا الجواب ، فان معنى هذا أنك ستزج . غخذ هذه المائة

فرنك ، واعلم أنها كل ما تملكه تلك المرأة التى ظننتها فى أوج السعادة . فاصعد الى بيت من

بيوت اليسر للوجود فى هذه المنطقة وظلمر بالمائة فرنك فى لعبة يسمونها الروليت ، وافقد كل

شئ . أو رده الى ستة آلاف فرنك ، وأعدك أن أحدثك عن أشجائى عند عودتك

— انتخطفنى الأبالسة اذا كنت قد قهوت شيئاً مما قلته لى الآن . ولكنى مطيع أمرك

كما وعدتك . . .

وقال امنى فى نفسه وقلبه يرقص طرباً بين جنبيه :

— اراها تتآمر معى ، ومعنى هذا أنها لن تحرق على صدى بعد الآن . . .



المائدة الخضراء

وأخذ منها إيجين كيس النقود الأنيق ، واتجه إلى المنزل رقم ٢٩ بعد أن دله عليه أصحاب الحوانيت في الشارع . وصعد السلم ، وسأل عن « الروليت » ، فقاده النادل إلى مائدة طويلة ولفت الفتى أنظار زبائن المائدة الخضراء المدمنين ، لأنه كان يادى الجهل بالعبة ، فالتفوا حوله مستطلعين ، فاذا به يسأل في سذاجة :

— أين ينبغي أن أضع النقود ؟

فأحابه شيخ عليه وقار الشيب :

— إذا أنت وضعت مبلغاً على رقم من هذه الأرقام الستة والثلاثين ، ووقفت المجلة على هذا الرقم ، أخذت مبلغك مضاعفاً ستاً وثلاثين مرة

فوضع إيجين المائة فرنك على الرقم الدال على عمره ، وهو واحد وعشرون . ودوت في القاعة صيحات الدهشة قبل أن يتبين الفتى علة هذه الضجة .. فقد ربح وهو لا يدري ! فقال له السيد السن :

— خذ مالك وانصرف ، فإن المرة لا يربح مرتين متواليتين على هذا التهج

وتناول إيجين المال ، فاقصص منه ثلاثة آلاف وستمئة فرنك ، وضعها بكل سذاجة على اللون الأحمر . ودارت المجلة وكسب مرة أخرى ، فأعطاه الموكل بالمائدة ثلاثة آلاف وستمئة فرنك أخرى . ومال الشيخ على أذن الفتى وقال له بالحاح :

— لقد ربحت سبعة آلاف ومائتي فرنك ، فاذا أردت نصيحة خالصة فانصرف لتوك ، فإن اللون الأحمر قد خرج حتى الآن ثمانى مرات متوالية . وإذا كان في قلبك ميل إلى الرحمة فتى وسلك أن تقدر نصيحتي قدرها بأن تخفف وطأة اليأس عن عافط سابق من رجال نابليون أصبح في حاجة ماسة إلى المساعدة

وفي غمرة هذا الجو أعطى الفتى الرجل مبلغاً من المال يصل إلى مائتي فرنك تقريباً وانطلق بالسبعة آلاف فرنك وهو يكاد يكون أجهل بالمأبى المائدة الخضراء منه حين أقبل عليها ، ولكنه كان شديد السرور بمحضه الموائى . فلما دخل العربة التى تنتظره فيها البارونة وأقبل بابها قال لها وهو يريها السبعة آلاف فرنك :

— والآن إلى أين ؟

داحتضنته دلهين لشدة فرحها وقبلته بحرارة ولكنها لم تكن قبلة صادرة عن رغبة أو عاطفة غرام ، وهتفت به :
— لقد أقدتني . .

وكانت دموع الفرح تنهمر على خديها حين استطردت لاهثة :
— والآن سأدلى لك بالمسألة كلها ، فأنت صديقي ، أليس كذلك ؟ انك تظنني غنية تحت يدي المال بغير حساب ولا ينقصني شيء . فاعلم إذن أن البارون دي نوسنجن لا يدع لي التصرف في درهم واحد : فهو يدفع بنفسه نفقات البيت ونفقات عرباتي ومقاصيري في المسرح ويسمح لي بميزانية ضئيلة جداً للثياب والزينة ويلاحقني بالحسابات الدقيقة والمراجعة في كل باب من أبواب المصروفات وكبريائي تحول دون التوصل اليه أو يبيع عواظي له باظهار التودد والهيام في نظير الحصول على مزيد من المال منه . مع أن بائنتي تبلغ سبعمائة ألف فرنك . فقد تزوجته وأنا صغيرة السن بحيث كانت عبارات طلب المال — ولو كان مالي — تقف في حلقى . فكنت أعتمد على مايعتني إياه أبى . فلما غاض هذا المين تورطت في الدين . حتى أصبح الزواج في نظري خيبة أمل مرة ، فكرهت هذه الحياة المشتركة بحيث لا أتردد في الانتحار إذا أجبرت على الحياة حياة تخالف مانحن عليه الآن من اختصاص كل واحد منا بمخدعه الخاص . . . فهو رجل كز فقط . وتصور يا صديقي مبلغ تعاسنى حين أبى اليوم أن يعطيني ستة آلاف فرنك ، مع أنه يعطى هذا المبلغ كل شهر لعشيقته ، التي ليست إلا فتاة من رافصات الأوبرا الحاملات . . . لقد خطر لي أن أنتحر . . فاذا أصنع ؟ أألبأ إلى أبى ؟ انه لا يستطيع لي الآن شيئاً ، فقد جردناه — أنا وأختي — استأزى — من كل ما كان لديه ، وأنا أعلم أنني لو طلبت اليه هذه الستة آلاف فرنك لأقدم على بيع لحمه إن استطاع إيوفر لي هذا المبلغ . . . ولكنى سأزججه في غير طائل ، فيزيد همه ويستفعل أله . وهأتذا أنقدتني من الفضيحة والموت . . . وهذا ياسيدي تفصيل ما رأيتني أقدم عليه من الفعل المستغرب . . . ولا تظنني وحدي في هذا الوضع الشاذ ، فنصف عقائل باريس يعانين ما أعاني ، وينقل عليهن العيش في بيوتهن ، وأن بدين أسمعدهم الخلق وأكثرهم مجبوحة وبساراً . بل إنى أعرف من هن أشد شقوة منى ، فزمة سيدات يحمن أولادهن ، لكن يتمكن من شراء ثوب جديد ، أو يزورن في « فواتير » نفقات البيت . أما أنا فاستنكف من هذا الخداع ، ولا أقبل أن أنيل زوجى ما هو حل له مادمت لا أضمر له الحب ! مع أن نوسنجن يتبنى رضائى ، وهو على استعداد إذا دفعت الثمن أن يفرقني في الذهب . . . ولكى أفضل أن أبكى على صدر صديقي حنون من أن أبيع نفسي لهذا الزوج القلط . . . وشكراً لله ، فإن دى مارساى لن ينظر إلى الليلة نظيره إلى امرأة دفع لها ثمن الهوى !
ثم غمط وجهها يديها حتى لا يرى الشاب دموعها ، ثم التفتت اليه وقالت :
— هدى ألك ان تستخدم ضدى سرى هذا . . .

فلما وعدھا تناولت يده وشدت عليها ، ثم أعطته ألف فريك من السبعة آلاف ، واجر وجه الفتى ورفض بشدة ، بيد أنها قالت له في إصرار :

— سأشعر إذا لم تكن شريكى أنك عدوى

— سأخذها اذن ، ولكن عديها مالا مدخراً لتقليبه متى شئت

— ليكن ، على شرط واحد : أن تقسم لى ألا تعود الى المائدة الخضراء أبداً . . ربه !

كيف أغفر لنفسى أننى أفدتك وعرضتك للتوايه !

ووصلت بهما العربة الى دار البارونة ، فأخذته الى جناحها الخاص ، واستمبلته حتى تكتب خطاباً ننته له بأنه خطاب عسير . فهى تريد أن ترسل السنة آلاف فريك الى مسيو دى مارساى ، فهو قد أقرضها إياها وهى كارهة ، لأنها لا تريد أن يبظر اليها نظرتة الى بائمة هوى . . . فقال لها ايجين :

— وإذا تكتبن ؟ ضعى أوراق النقد فى مظروف ، وأغفقيه واكتبي عليه الضوان . .

وكفى . . . ثم أرسليه مع وصيفتك

— لله ما أحسن رأيك . ولا يجب ! فتلك أساليب أبناء البيوتات تهديم اليها بصيرة نافذة

وفطرة سليمة راقية

وفعلت ما أشار به عليها ، وأرسلت وصيفتها تيريز بالحفاب الى دار « دى مارساى » . وكان العشاء قد أعد ، فقاما الى قاعة المائدة ، وإذا مائدة داخرة حقاً . وذلك البارونة وهى تجلس قبالة :

— فى جميع اللبالي التى نذهب فيها الى الأوبرا الايطالية ، أنت مدعو للعشاء . . هنا ، ثم

تصحبنى الى الأوبرا . . .

— كان يسرق أن أتعود هذه الحياة الناعمة الرخية ، لو أنها تدوم ، ولكن ماذا أصنع

وليس لطالب فقير مثل أن يقدر على هذا المستوى العالى من الحياة ؟

— لا تعلق من هذه الناحية ، ولتكن لك فى مسألتى عبرة : فمن كان يقدر أن أمورى

ستنسوى على هذا النحو فأتقبل من هاوية الشقاء الى قمة السعادة ؟

وتناول ايجين يد البارونة وضغط عليها شاكراً . . .

وفى مقصورتها بالأوبرا ، تشابكت يداها معظم الوقت ، يتناجيان بالامسات كلما حركت أشجانهما الموسيقى الرقيقة . وكانت هذه السهرة من أمتع اللبالي وأكثرها سحراً ونشوة للشاين . حتى إذا انتهت الرواية ، أصررت البارونة على توصيل الشاب إلى قرب بيته ، مع أنها ظلت تصده وتزوده طول الطريق عن قبلة كان يتنازعها إياها . . . وقد شاقه طعم القبلات التى غمرته بها قرب الباليه رويال ، عندما عاد اليها بما كسب من النقود

وتكدر ايجين لهذا التغير الذى جعلها ترضى عليه بقبلة يلمسها وهى التى منعت قبلة

بلا التماس منذ ساعات ... فلما سأها تفسير هذا التناقض الظاهر ، قالت له :
— تلك كانت قبلات عرفان الجميل ، لما صدر عنك من إخلاص غير متوقع . . أما الآن
فالقبلة معناها الوعد والتأميل . . .

— وهل ترفضين أن تعديني وتغنيني بالسعادة ؟
وبدا عليه الغضب ، وندت منه لإشارة ضيق وتبرم ، فدت إليه يدها في دلال يندب قلب
العاشق الولهان كي يقبلها ، فرفعها الى فمه في اضطراب وارتباك سر لها قلبها ، لأنها استندت
من ذلك على عشقه لها عشقاً عميق الجذور في نفسه . . . فقالت له وهو يغادر العربة :
— الى اللقاء يوم الاثنين ، في الحلقة الراقصة عند المارشالة كاريليانو . . .
واستأنف الفن طريقه على قدميه ، في صمت الليل وضياء انقمر ، وكأن في صدره
عصفوراً يغنى . . .



الدرس الثالث

وكان الأب جوريو قد ترك باب غرفته مفتوحاً كما ترك شمعه مضاءة حتى لا ينسى إيجين عند عودته في ساعة متأخرة ان يدخل اليه توا فيحمل اليه آخر الأخبار عن ابنته وكيف بدت تلك الليلة والى أى حد كان تتمتعها بالسهرة والسباع . ولم يخف إيجين عنه شيئاً مما حدث . فأخذت الشيخ نوبة من الغضب والحمية وصاح :

— إنها نطنانى معدم . وهذا خطأ محض ، فأتزال في حوزتي ثروة تمدني بدخل سنوى يصل الى ألف وثلاثمائة فرنك . يا الهى ! لماذا لم تأت البنية المسكينة الى أبيها ، ولماذا حملت في صدرها الصغير البافع كل هذه الآلام دون ان تشركني فيها ؟ اني كنت خليقاً أن أبيع جانباً من هذا الدخل ، فأنا رجل قليل المطالب ضئيل الأرب في متاع الحياة ، ولماذا لم تبادر باخباري في الحال بما تعانيه ابنتي من ضيق ؟ وكيف طاولك قلبك يا جارى العزيز أن تغامر على المائدة الخضرى بفرنكاتها المائة ؟ إلا انه دون هذا وتنفطر أكباد غلاظ وقلوب شداد ! أهذه إذن هى الزيجات الناجحة والمصاهرة التى ترفع الرأس ؟ والله لو ملكت رقبتى زوجى . بنيتى لا تركتها بعشاش لحفلة واحدة ولحففتها حقاً ! يا إله السماء ! أنقول انها بككت ؟ هل بككت حقاً ؟

— نعم ورأسها على صدرى

— أعطينيه ! أعطينيه حالا ! اليس عليه قد سفطت دموى ابنتى أنا ؟ دموى عزيزتى دلفين التى لم تنك أبداً ومي طفلة ، لأننى لم أكن أمنعها شيئاً . سأشترى لك صداراً غيره ، فلا تلبسه ودعه لى ! إنها صاحبة الحق في استغلال ثروتها الخاصة كما نص على ذلك في عقد الزواج . وسأذهب الى المحامى منذ الصباح وأطلب حساباً دقيقاً من هذا الزوج القادر عن أموال ابنتى . أجل إننى قد أصبحت الآن ذنباً محموزاً بلا أسنان ، ولكنى سأسترد ما سقط من أسناني لأؤدب هذا الورد . . !

— خذ أيضاً هذه الألف فرنك وضمها في الصدار لأنها أصرت أن آخذها مما ربحت لها ، فاحفظ لها بها

فرشنى الأب جوريو إيجين بنظرة فياضة بالامتنان وتناول يده فمد عليها وأسقط عليها دمنعة دافئة وهو يقول له :

— ننى يا بنى أنك ستصادف النجاح في أمورك ، لأن الله عادل ، ولأن أمثالك في الدنيا

قبايل ، فهل لك أن تكون لى بمثابة الولد فيصبح لى ابن وبنثان ؟ اذهب الآن ونم ، فإنك مستطيع فى هذه الفترة من حياتك أن تنام مله جفنيك ، لأنك لم تصبح بعد أباً .. لقد بككت ، بككت ، مى بككت . وهأنذا أتلقى هذا النبأ الزلزل فى حين أنتى كنت وقت بكائها مشغولا فى تناول الضمام كائى حيوان بهيم

فلما أوى الشاب الى حجرته واستعد للرقاد جعل يقول فى نفسه :

— لعمري من الخير ان يحيا الانسان معتصما بالشرف والاستقامة فان راحة الضمير هى المنفعة

الكبرى فى الحياة . .

وفى اليوم الثانى ذهب ايجين الى دار الفيكوننس دى بوسيان كى يصحبها الى الرقص المقام فى دار الماريشال دى كاريليانو ، حتى تقدمه اليها . وفى صالون الماريشال تهلل وجهه عندما وقعت عيناه على دلفين دى نوسنجن بين الحاضرات وتبين الفن فى هذه الحفلة أى مزية حصل عليها فارتفع بها قدره اذ اشتهر بين الناس بأنه ابن عم الفيكوننس دى بوسيان ، وأضيف الى هذا ما تناقلته الأسن من توثق العلاقة بينه وبين البارونة دى نوسنجن الحناء ، فأصبح موضع الحفيظة والحسد من كثيرين من الشبان ، وطرق سمعه طرف من أحاديثهم عنه فانتفخت أوداجه وأجدى هذا عليه من جهة أخرى لأن دلفين خشيت أن تفقده إذا هى تدلت عليه كثيراً فوعده عند الانصراف بتلك القبلة التى منعت إياها فى المرة السابقة

وفى تلك الحفلة قدمته الفيكوننس إلى كثيرات من العقائل وناقى منهن دعوات كثيرة للتردد على صالوناتهن ، فأضخى فى الحفلة واحدة يملك جواز المرور إلى أرقى الأوساط فى العاصمة الفرنسية فلما كان الصباح وجلس نزلاء الحان إلى مائدة الافطار ، جعل يقص على مسمع منهم على الأب جوريو مالفيه من توفيق فى ذلك الحفل ، فابنم فوتران ابتسامة خفيفة وقال :

— وهل تعتقد أنه يمكن لشاب أن ينجح فى المجتمع العالى إذا ظل مقبياً فى هذا المكان الخفير وفى هذا الحى التواضع ؟ ألا فاعلم يا صديقى الشاب أنك إذا رمت النجاح حقاً والتبريز فى المضمار الاجتماعى ، أنه ينبغي لك ثلاثة جياذ ، وعربية لزهره الصباح ، وأخرى لسهرات المساء ، وتلك وحدها لا تكلفك أقل من تسعة آلاف فرنك يضاف إليها ثلاثة آلاف أخرى فى السنة للطرزى وستائة فرنك للمطور ، وخمسمائة فرنك للأحذية ومثلها للقبعات ، أما الفسالة فلا تكلفك إلا ألف فرنك ، فالكبان التأهون يحرسون أشد ما يحرسون على ارتداء الأقصة فى غاية من النظافة ويجمع هذه النفقات أربعة عشر ألف فرنك سنوياً لا يدخل فيها ما ينبغي أن ينفق عن سبعة على مائدة الفهار وفى الهدايا التى تقدم فى المناسبات ، فخذ كلاً من هذا قضية مسلمة لأننى جربت هذه الحياة بنفسى فيما مضى ، ووجدتها لا تيسر بأقل من خمسة وعشرين ألف فرنك . ثم لانس أنه ينبغي أن يكون لك وصيف أتيق مهذب ، أم ترى سيقوم كريستوف خادم خانتنا الأذى بحمل رسائل الغرام ؟ وهل سنكتب تلك الرسائل فى أوراق الكراسيات المدرسية ؟

ان هذا سيكون بمثابة انتحار اجتماعي لو فعلته ، فصدق نصيحة صديق مخلص يحفل وطلبه بتجارب
العمر ، وتخبر منذ الآن لنفسك احدى خطتين : اما حجرة في السطح وكدح في سبيل العيش ،
واما خطوة أخرى تخذاف عن نمط هذه الحياة كل الاختلاف
ونغمز فوتران بعينه إلى جهة الأنسة دى بايفير ، على سبيل تذكير الشاب بما تحدثنا فيه
من أمرها



إذعان

والحق أن ليجين دى راستنيك كان فى موقف دقيق محير ، وقف مثله معظم الشبان العاشقين : فالبارونة دلفين دى نوسنجن عرضته على درجات الجحيم التى يعرفها أهل الهوى الصادق ، واستخدمت فى ذلك أقصى فنون السياسة الانثوية التى تعرفها باريس . فهى بعد أن اكتسبت فى نظر الكافة سمعة الاستثناء بمواطفت ابن عم الفيكونتس دى بوسيان ، لم تنله من نفسها ما كان يؤمله له ثلث الناس من أمره معها . فطلعت نحواً من شهر تلهب حواسه وتلمب بها ، حتى كاد يئأس من حبها فهل كان هذا تدللاً من البارونة ، أم تلاعباً ، أم هو حساب مقصود وخطة موضوعة ؟

ربما كان الأمر على خلاف هذا إطلاقاً . فن الجائز أنها بعد أن قربت الفنى ، وأحست له عليها تأثيراً كبيراً ، تحركت كبرياؤها فتمتعا من السقطة الأخيرة . كما أنه من الجائز أيضاً أن تتأنى الباريسية كثيراً قبل الاستسلام التام لعاشقتها ، حتى تمتحن إخلاصه وتعرف حقيقة ما ينطوى عليه قلبه . وهذا هو الاحتمال الراجح على سواه ، فقد خابت آمال البارونة فى عشقها الأول ، ومنيت بفشل ذريع ! فلها العذر كل العذر إذا لزمت الحذر . يضاف إلى هذا أنها قد تكون استنشت فى الفنى بعد نجاحه الاجتماعى الحاطف ميلاً إلى الفرور والاستهانة بقيمة الخطوة عندها ، فأرادت أن تفرض احترامها على شاب لا يزال فى حداثة السن ، حتى ترده إلى حسن التدبير ، فلا يظنها امرأة سهلة تبذل نفسها لكل طارق يرق باب قلبها ، أو باب مخدعها

ومهما يكن من أمر هذه الأسباب أو المبررات ، فالحقيقة التى لا شك فيها على كل حال أن دلفين مملت الفنى الوصال ، ولعبت بمواطفت ، ولقد لها هذا اللعب ، كما يلد للهرة أن تلمب بفريستها ، واثقة من النصر ، ومن وقوع الفريسة بين براثنها فى أى وقت تشاء .. ولم يشأ ليجين أن تكون خاتمة مغامرته الأولى فشلاً محضاً ، فزعمها ولم ينفذ بده منها رغم ما لقيه من عذاب أليم

ولكن هذه الفترة التى قضاه الفنى فريسة للشد والجذب والنم والنم كلفته تلك العلة من المال التى كانت قد تجمعت بين يديه بثمن غال من تضحيات الوالدة والشقيقات . وكمن مرة تقل عليه فيها ضيق ذات اليد فخطرت بباله أن يضرب عرض الحائط بصوت ضميره ويستسلم لما عرضه عليه فوتران من الزواج بالآنسة دى تايفير ، وحدث فعلاً فى لحظة من لحظات الفتوت - وكان وحيداً مع مدام فوكير ومام كوتير وفينكتورين - أن رشق الفتاة بنظرة ناطقة

بالرفقة ، ففضت الفتاة بصرها ثم سألته بعد لحظة صمت قصيرة :

— أنشكوما دينا يا سيد إيجين ؟

— وأى امرئ لا يطوى صدره على هم ؟ ولو أننا ماشر الشبان وثقنا من أن نمة قلوباً

تنطوى لنا على الحب الصادق ، خير ما نتجمله من أرهاق الحياة لما طرق الهم قلوبنا

فرمقته الفتاة بنظرة لا يختلف في تأويلها اثنان . فهمس لها الفتى :

— أنت اليوم واثقة من قلبك يا آنة ، ولكن هل تضمنين أنه لا يتغير بفعل الأيام ؟

فطافت بشفتي الفتاة السكينة ابسامة كأنها شعاع بانق من روحها فأضفت على وجهها وضاءة

ارتاع لها الفتى ، لأنه أدرك منها أى بركان كان خامداً من المواطف والانفعالات تعرض له

ليحرك كوامنه ، ولكنه استطرده بسأله :

— إذا وانتك أسباب التراء غداً من حيث لا تعلمين ، بقيت على حب شاب فقير كان قد

راق في عينيك أيام يؤسك ومسفتك ؟

فأومأت له برأسها بإعانة لطيفة

— شاب فقير جداً إلى درجة الاعدام ؟

فأومأت إليه مرة أخرى جواباً على سؤاله

وفي هذه اللحظة صاحبت بهما مدام فوكير من الطرف الآخر للصالون حيث كانت تجلس مع

مدام كوتير قائلة :

— بماذا تهرفان ؟

فصاح بها إيجين :

— دعينا وشأننا ما لنا بتفاهم

-- أنتضبع أن نأمل إذن في إعلان قريب لخطبة الشيفالييه إيجين دى راستنباك والآنة

فيكتورين تايفير ؟

وقبلت هذه العبارة بصوت أجش عريض هو صوت فوتران الذى ملا جسمه انضخم فراغ

باب القاعة . فتدخلت مدام كوتير وقالت :

— كى دعايات نائية عن موضعها ! هيا بنا نصعد يا ابنتى

وصحبت مدام فوكير السيدة والفتاة لتفضى السهرة في حجرتهما تنزل الصوف وتوفر شتمها

التي تنيرها في حجرتهما . فبقى إيجين وفوتران وحدهما وجهما لوجه ، فرشق فوتران الفتى بنظرة

نافذة وقال له :

— كنت أعلم أنك ستنتهى إلى النزول عند رأبى. بيد أنى أنصحك ألا تبت الآن فى الأمر

لأنك لست فى حالتك العادية فى هذه اللحظة : فأنت غارق فى الدين ، وأنا لا أريد أن يكون

قرارك صادراً عن اندفاع عصبي ، بل عن تفكير منطقي هادئ . أما الآن فإذا كان يعوزك . بل من المال ، فخذ ما تشاء

وأخرج هذا الشيطان من جيبه حافظة منتفخة بالأوراق المالية أعطى منها الفقى ثلاثة آلاف فرنك . وكان إيجين في هذا الوقت بالقات في أشد حالات العسر المالي : فهو مدين للمركيز داجودا وللكونت مكسيم دى ترأى بخمسمائة فرنك خسرها أمامهما في القمار . وهو لا يملك هذا المبلغ ومن ثمة فهو غير مستطيع أن يذهب لقضاء السهرة عند الكونتس دى ريسو التى عدلت عن إيراد بابها في وجهه بعد النجاح الداوى الذى لقيه في المحافل والمجتمعات . لهذا كان الفقى يشعر بضغطة هائل على أعصابه وهو يقول لقوتران :

— أنت تعلم جيداً يا سيدى أنه يستحيل على بعد الذى أفضيت إلى به أن أكون مديناً لك بأى شكل من الأشكال

— يعجبني منك هذا الكلام . وانى أوافقك عليه . فلن تكون مديناً لى بهىء من الفضل إذا أنا تقاضيت ثمن هذه الخدمة مبلغاً من المال . فهناك سند أكتب فيه بخطك أنك تتعهد بدفع ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك بعد عام من هذا التاريخ . فالفائدة التى تبلغ خمسمائة فرنك مسكن كاف لوساوسك وهو اجسك ، لأنها تجعلك غير مدين لى بأى فضل ، وتسمح لك بأرضاء كبرياتك كما تشتئى عن طريق احتفاظ ذلتى المتواضعة . وانى أقبل هذا عن طيب خاطر عالماً أنك ستتقلب إلى حصى في يوم من الأيام عندما تعمد عاقبة نصحى لك وانى والله لنى عجب من تغير الأحوال في هذا الزمان : ففيا مضى كان المرء ينقد رجلاً من أهل الشجاعة خمسمائة فرنك ويقول له : اقتل لى فلاناً من الناس ، ثم ينصرف إلى تناول طعامه بنفس مطمئنة . أما اليوم فما أنذا أعرض عليك ثروة طائلة في نظير إيماءة من رأسك لا تكلفك شيئاً ولا تورطك في شيء ، ولكنك مع هذا تحف متردداً . يا لجبيل الخرع !

فوقع إيجين السند وتسلم الثلاثة الآلاف فرنك ، واستطرد فوتران :

— والآن فلنتحدث فيما يجدى : فأنا أريد السفر إلى أمريكا في ظرف بضعة أشهر ، لكني أفرغ لزراعة الطبايق وأرسل اليك من هناك لفائف التبغ الفاخر تذكاراً لصداقتنا ، فإذا أصبت ثروة فاني عازم على مساعدتك ، وإذا لم أنجب أطفالاً فسأوصى لك بتروتى ، فأنا أشعر بخوك بباطفة حب صادق ، وأنا من ذلك الطراز من الرجال الذى يقدس العواطف ويمش لها : ذلك أنى أعيش في فلك أعلى من المستوى العادى للناس ، فليست الأعمال عندى شيئاً مذكوراً لأنها مجرد وسائل ، والنبايات وحدها هى التى تعينى . وما الانسان في نظرى ؟ هو كل شيء أو هو لا شيء ! هو لا شيء بل هو أقل من الهباء وأهون من الدم والغذاء إذا كان على غرار جارنا يواريه ، فهو والبرغوث سواء وليس سحقه جريرة أكبر من سحق بقعة ، فهو تافه قدم لاجبوية فيه ولا شخصية له . أو هو كل شيء ، بل أنه أقدس من الانسان ، هو إله إذا كان

ى غرارك مملوءاً بدفقات الحياة ، وأبى يجرد آلة صماء نأكل وتشرب وتلهى ! لأنه يشبع بمواطنه ، والعواطف عندى هى أبواب الحياة ، فما العاطفة إلا العالم كله . انخساً فى حركة من حركات الوجدان . انظر إلى هذا الأب جوريو : بنتاه هما العالم أجمع لديه . وأنا مثله ولكنى أرى أن العالم أجمع يتلخص فى عاطفة الصداقة التى تربط بين رجل ورجل . وهذا كل ما عندى قد أفضت اليك به ، واثقاً أنك ستنتهى إلى حكمة الزواج من هذه الفتاة وانصرف فوتران قبل أن يسمع إجابة الشاب ، كأنه واثق أن الاعتراض أو الرفض لا قيمة له أمام الظروف التى يضرها المستقبل

وقال الفتى مخاطب نفسه وهو يتحسب الثلاثة الآلاف فرنك :

— فليعمل ما يحلو له ، فاني لن أنزوجهما

ولما هدأ روعه قليلاً قام فارتدى ملابسه واستقل عربة إلى قصر مدام دى ريسو ، فأدى دى ترى وداجودا دينهما ، ثم لعب لعبة « الويست » الانجليزية التى شاعت فى المجتمعات الباريسية الراقية فاسترد ما كان قد خسره ، وخيل إليه أن هذا الحظ السعيد قد كافأته به السماء لتمسكه بطريقة الاستقامة فى مسألة الزواج بالآنسة دى ترى ، ذلك الزواج الذى يخفى الرضى بجريمة قتل

فلما كان الصباح التالى أسرع إلى فوتران وطلب منه السند ورد له اثلاثة الآلاف فرنك مزهواً ، فابتسم الرجل ابتسامة الخبير بأطوار الشباب ، وكأنه يقول :
— من يعيش يره ..



مؤامرة أخرى

وبعد يومين شوهد بواريه والآنسة ميشونون جالسين مع شخص ثالث في منعطف منزله بحديقة النباتات . وكان هذا الشخص الثالث يدعى السيد جوندورو . وكان هذا السيد يحاول إقناع السيدة ميشونون بأمر تظهر التردد في إرضائه

—...ولست أرى يا آنسى ما يبرر هواجسك مع أن السيد وزير الأمن العام في المملكة...
فصاح عندئذ بواريه :

— السيد وزير الأمن العام !

—...! أجل السيد الوزير بنفسه مهم بهذا الموضوع

وكانت كلمة السيد الوزير كافية لاستيلاء الخشوع على السيد بواريه الموظف المتقاعد الذي قضى حياته في التبعية لأى وزير ، فالوزير له من القداسة عند مثله ما أبابا روما عند جماعة المؤمنين بالكنيسة ، فهو نقي طاهر معصوم من الخطأ ، تحيط حالة من التقديس بجميع أفعاله بل باسمه المجرد . ويبدو أن السيد جوندورو قد استطاع أن يسر غور بواريه فتعمد ذكر اسم السيد الوزير حتى يستولى على إرادة هذا الرجل ، كما تتولى دقات الطبول العسكرية على حركات الجواد الحربي المدرب . وبالفعل أنشأ بواريه يضغط على الآنسة ميشونون كي تستجيب لرغبة السيد الفاضل مندوب وزارة الأمن العام . واستعمر جوندورو يقول ضارباً على هذا الوتر الحساس :

— إن السيد الوزير لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن الدعو فوتران والقاطن بخان فوكير إن هو في الحقيقة إلا مجرم هارب من الألمان مشهور باسم قاهر الموت ... فإنه أوتى من حسن الطالع ما جعله يفلت من الموت بما يشبه المعجزة مراراً عديدة مع شدة جرائمه ومجازفته . فهذا الرجل شخص خطر ولكنه غريب الأطوار : فهو لا يخلو من شهامة وأريحية ، فهو مثلاً قد حكم عليه في المرة الأخيرة للجرم لم يقترفه .. ذلك أنه تحمل وزر المجرم الحقيقي وهو شاب جميل جداً من أصل إيطالي ، كان يحب فوتران كثيراً

فسألته الآنسة ميشونون :

— ولكن ما دام السيد الوزير متأكداً من أن فوتران هو بعينه قاهر الموت ، فلماذا يريدنا على معاوئته ؟

— إنه ليس متأكداً بمعنى الكلمة ، وإنما هناك قرائن قوية على أن هذا الشخص هو جاك كولان ، اللقب بقاتل الموت ، وأنه موضع ثقة ثلاثة مناسر من المصنوع ، يقوم لهم بدور الوسيط في تصريف السرقات ، نظير عمولة كبيرة ، ويحفظ لهم أموالهم ، ويستقبلها ويستثمرها لهم ، وينفق منها على أسرهم إذا سجنوا ، فإذا أطلق سراحهم أو هربوا من السجن رد اليهم مالهم ... فن الأهمية لدى الدولة بمكان أن تستطيع الفاء القبض على هذا الشخص ، والاستيلاء على المال الموجود تحت يده ، والذي يقدره المافون بمبلغ طائل ... فإذا ساعدت الدولة في هذا السيل ، لم تضمن عليكما بالمكافأة الجزيلة . فيمكن أن يعود السيد بواريه الى الخدمة ، سكرتيراً للفتش من مفتشى البوليس مثلاً ، ولا يحول ذلك دون استمراره في قبض العائن عن خدمته السابقة . أما الآلة فستكون مكافأتها ذات بال فألته الآلة ميشونون :

— ولكن لماذا لا يأخذ فوتران لنفسه هذا المال ويهرب به !
— لأنه اذا هرب فسيتبعه المجرمون الموتورون أينما حل لينتقموا منه . ثم ان فوتران يعتبر هذا العمل غدراً لا يليق بشرفه

— ... ولماذا لا يقبض عليه الحكومة بدون وساطتنا ؟
— لأن فوتران يبدو رجلاً شريفاً في الظاهر ، فإذا لم تكن الحكومة متأكدة تأكداً قاطعاً ، كان إقدامها على إزعاج رجل شريف وثرى عملاً غير مأمون العواقب ، لأن له أصدقاء في أعلى الأوساط .. والسيد الوزير لا يريد التعرض لخط الرأى العام وكبار رجال الأعمال من أصدقاء فوتران بدون موجب . ثم ان مدير البوليس قد يتعرض لتقدم ركزه اذا وقع في مثل هذا الخطأ فمادت ميشونون تقول :

— ولكني أظنكم بحاجة الى امرأة جميلة للوصول الى سره ...
— قاتل الموت لا يهتم بالنساء ولا يحبهن ...
— فقيم تريد معاونتي لك إذن ؟
— المسألة في منتهى البساطة : سأعطيك سنجوراً صغيراً فيه مخدر قوى ، إذا صبيته في كأس فوتران أو في قهوته فقد وعيه في الحال . وليس أيسر في هذه الحالة من قتله الى فراشه وخلع ملابسه بحجة إفاقة ، فتسحق لك الفرصة للتحقق من وجود « طابع الايمان » المدعوى به كتف المجرم الهارب ...

— ولكن اذا لم أجد هذا الطابع ، هل تعطونني مكاناً ، ومي كما تقول ألفان من الفرنكات ...

— طبعاً لا ... خسارة فقط في هذه الحالة ...
— هذا مبلغ لا يساوي الخطيئة . إن الوزير واحد في الحالتين ، فلماذا لا يكون الثمن

واحداً ؟ اسمع ! اجمل المكافأة ثلاثة آلاف فرنك اذا صح أنه المجرم الهارب ، ولا شيء إذا
انضح أنه ليس هو . . .

- وهو كذلك ! ولكن على أن تتم العملية غداً . . .
- ليس بهذه السرعة ، فلا بد لي من استشارة القس
- إذن نتقابل غداً لأعرف أوافقين أم لا بصفة نهائية
- هو ذاك . . .



هو وشجو

ولما ضاق الفتى يمين بصدود دلقين في اليوم التالي لم يستطع مقاومة مافي مشروع فوتران من إغراء ، فارتقى في التودد الخادع لفيكتورين دى تاخير ، وصدقت الفتاة للتلهفة إلى المطف والحب ماظاها لها به ، غفل اليها أن السماء قد فتحت لها أبوابها وأصبح خان فوكير في نظرها وكأنما قد زاته أبهى الألوان والطنافس التي تزدان بها أنعم القصور

وأخذ الفتى من سورة الندم على هذا القفل دخول فوتران في هذه اللحظة ، فقرأ بنظرته النافذة ما بين الشاين ، فولت فيكتورين هاربة لاذعراً ولكن خجلاً من هذه السعادة التي لم تتمتع بمثلها في حياتها من قبل ، وقال فوتران لاييمين على الأثر :

— ان المسألة في طريق الحل النهائي : فقد وقعت القرعة والمشادة بين صاحبي والشاب تاخير ، واستدرج الشاب الساذج حتى تورط في توجيه الاهانة إلى صديقي ، وغدا في منتصف التاسعة صباحاً سيلتقي الفرمان ، وستصبح الأنسة تاخير الوريثة الوحيدة للقلب والدها و ثروته في الوقت الذي تكون متصرفة فيه هنا إلى غمس قطع الخبز في فتحة القهوة على مائدة الافطار . اليس هذا طريفاً حقاً ؟ وقد بلغت أن الشاب تاخير بارع في ألعاب السيف ، ولكنه لايعرف ضربة خاصة ابتدعتها أنا ويعرفها صديقي ، يطير بها السيف من يد الخصم ويصاب في جبهته بضربة قاضية . وفي نيتي أن أعليك هذه الضربة يوماً ما ، لأنها نافعة للغاية

وكان يمين يصنى إلى هذا الكلام مبهوراً ولا يمين . وفي هذه اللحظة دخل الأب جوريو ويان شون طالب الطب وهر من النزلاء الآخرين . وخطر لراستنيك أن يذهب في الماء ليعيط كلسيو دى تاخير الشيخ وولده بحقيقة المؤامرة ، ولكن الأب جوريو مال في هذه اللحظة على أذنه وقال له :

— أراك مكتئباً يا ولدي ، لهذا سأدخل السرور على نفسك ، تعال معي !

فقام الشاب وتبعه وقد استبد به حب الاستطلاع ، وقال له الشيخ :

— لتدخل إلى حجرتك ... لعلك قد ظننت هذا الصباح أنها لا تحبك لكثرة ماتدلت عليك ؟ فقد بلغت أنها صرفتك وأنت غاضب يائس . اعلم إذن أنها صرفتك في هذا الوقت لأنها كانت تنتظرني أنا ، لأننا كنا على موعد لنتم أعداد مسكن أنيق خفيف الظل تتلاقيان فيه على هواكما بعد ثلاثة أيام . وهي تريد أن تجعل هذا الأمر مفاجأة لك ، فلا تظهر لها معرفتك به

لأننى أنا أطلعتك عليه لما رأيت حزنك ، فأنت عندى أثير ... وقد انتقينا الأثاث مماً ، وكانت تتجرى أن يكون بهيجاً كجهاز العريس ، وقد استغرق هذا الاعداد أوقاتنا منذ شهر ، وقد ربت لك الأمر مع الحماى كى يصل الى يد ابنتى ربيع بائنتها وهو سنة وثلاثون ألف فرنك فى السنة . . . !

وكان ليحين يصفر وهو يتمشى فى الفرفة صامتا وذراعا معقودتان فوق صدره . فانتهر الشيخ فرصة أدار فيها الشاب له ظهره وهو يتمشى ، فوضع على رف المدفأة صندوقاً صغيراً من الجلد المراكشى الأحمر مطبوع عليه بالذهب شعار أسرة راسنتياك ، وقال للفتى :
— يا ولدى ! لقد سميت لهذا الأمر جهد طاقتى ، ولكننى كنت فى الواقع مدفوعاً بالأنانية ، فهل تعدنى ألا ترفض لى طلباً سأقدم به اليك ؟
— وما هو ؟

— فوق المسكن ، مسكنكما الجديد ، فى الطابق الخامس ، حجرة تابعة لمسكنكما ، فهل فى الامكان أن أقيم فيها ؟ فقد كبرت سنى ولم أعد أطيق كل هذا البعد عن بتى ، وثق أننى سوف لا أضايقكما ، فيكفينى أن أراها وأن تحدثنى أنت كل ليلة عنها ! والحق بعد سيكون أقرب كثيراً الى الشاترليزيه التى أرتادها لأرى ببنى أثناء زهرتهما ... ان دلتين قد عادت اليها سعادة الطفولة منذ هذا الشهر ، فهى مدينة لك بعلم السعادة ، ولهذا تجدى مستعداً أن أفعل المستحيل من أجلك

ومسح الرجل الطيب عينيه فقد كان يبكى
— ... وقد أسعدنى اليوم الحظ بنعمة حرمت منها منذ عشر سنين ، فقد طفت بالحوانيت وابنتى متعلقة بذراعى . ألا ما أحلى أن يشعر الانسان بمسئوليتها وهى تتمشى يداعب ذراعه ... فاحتفظ بى فى جوارك ، فقد محتاج إلى شئ ، فأقضيه لك أنا ، حتى إذا مات هذا الزوج اللزاسى الثقيل تمت السعادة لابنتى بالزواج منك ... وقد قلت لها أنك أعطيتنى الألف فرنك ، فتأثرت كثيراً وأعطينى شيئاً أوصله اليك . انظر ماهنا الذى فوق مدفأتك ؟

فلما فتح الفتى الصندوق وجد فيه رقعة تحتها ساعة ثمينة ، وفى الرقعة هذه الكلمات :

« أريد أن تفكر فى كل ساعة ، لأننى ... دلتين »

فتأثر الشاب حتى لقد دهمت عيناه ، وقال له الأب جورجو :

— اذهب لزيارتها هذا المساء ، فانها تنتظرك ، فاللزاسى سينتمشى الليلة عند صاحبه الراقصة ،

فهل تقبل عيشى معك ؟

— أجل يا أبى ، فأنت تعلم جيداً أننى أحبك

— أعلم هذا ، فأنت لا تتجمل منى

واحتضن الشاب بحرارة ثم قال له :

— تمهد لى أن تسعدها ! انك ذاهب الليلة . . البس كذلك ؟
 — أجل ، ولكنى سأقضى قبلها أموراً لا تختمل الإرجاء
 — وهل فى وسعى أن أقضى لك شيئاً منها ؟
 — تذكرت ! فى الوقت الذى أكون فيه عند دلفين ، تذهب أنت للقاء السيد تايغير الكبير
 لطلب اليه موعداً يقابلنى فيه أثناء السهرة لشأن ذى أهمية قصوى
 فصاح الأب جوريو فى حدة وقد تغير وجهه :
 — أصبح إذن أيها الشاب أنك تفازل ابنته كما يزعم هؤلاء الأوباش ؟ يا اله السماء ! انك
 لا تعلم يا ولدى مدى ما يصل اليه جوريو إذا غضب . فاعلم أنك إذا خدعتنا تمرضت لضربة
 قاضية ... ولكن هذا مستحيل !
 — أقسم لك أننى لا أحب إلا امرأة واحدة فى العالم
 — وافرحتاه !
 — كل مافى الموضوع أن تايغير الصغير سيبارز بعض الناس غداً ، وقد سمعت أنه سيقتل
 — وما شأنك بهذا ؟
 — يجب أن نخبره لئيمع ابنه من الذهاب ...
 وفى هذه اللحظة سمع عند عتبة الباب صوت فوتران المريض يتغنى بأغنية شعبية ، ثم حضر
 الخادم كريستوف وصاح :
 — أعدت المائدة والجميع فى انتظاركما
 وصاح فوتران بمرح :
 — هيا تناولا معى زجاجة من نبيذ بوردو
 أما جوريو فكان منصرفاً إلى سؤال ايخين عن الساعة وهل أعجبتته ، ثم استطرد إلى إطراء
 ذوق ابنته الجليل !
 وهكذا هبط فوتران والأب جوريو وراستنيك معا ، وجلسوا إلى المائدة متجاورين بحكم
 تأخرهم فى النزول



كئوس الطلى

كان تأثير هذا البقن الذى طرأ على قلب لىمن من جهة دلقن ضاماً على اقراء فوتران . لهذا أظهر له القى أثناء الطعام نفوراً ، مع أن فوتران كان فى تلك الساعة فى قة المرح والظرف ، ينتر الدعايات عىناً وىداراً ، حتى أن مدام فوكبر سألته فى دهشة :

— ماذا جرى البوم حتى يستخفك المرح الى هذا الحد ؟ .

— انى دائماً مرح ، حبن أوفى فى صفقة رابحة ...

فسأله لىمن متهمكاً :

— صفقة ؟

— أجل .. فقد سلمت البوم بضاعة طلبة سأنال عليها عمولة ضخمة !

فصاحت مدام فوكبر :

— ما دام الأمر كذلك ، فلا تضيع الرقت فى الكلام ، وهات نبذك الموعد

فقال فوتران فى بكون مزوج بالجد الموه :

— أبها السادة ! ان حضرة الرئيسة قد نبهتنا الى جدول الأعمال ! يا كرىستوف .. هات النبذ

— هاكه يا سبى ..!

فصب فى كأسى لىمن وجورىو من النبذ ما ملاءها ، ثم وضع فى كأسه بضع قطع امتصها فى

بطء ، ثم عبس وصاح :

— هذا لبس من أعلى طبقة . خذ هذه الزجاجة لك يا كرىستوف ، وهات أخرى ، مما

فى الجهة اليمى .. نحن هنا ستة عشر ، فأنزل ثمانى قنينات

وما مى إلا دقائق ، حتى دارت على الشاربين كئوس الطلى منزعات ... وبدأت حرارتها تسرى

فى المروق وتصدع الى الرؤوس .. ودوت الضحكات العالية المتعلقة من كل تحفظ ، وتغايرت

النكات والفنشات ، وبات الكل يتحدثون فى وقت واحد ... حتى صارت الضجة شيئاً فظيماً

لا يمكن أن يحتلها إلا المخمورون . فالكل يهزلون ويهذرون ، وفوتران يرشقههم باسمًا بنظراته

المهاتمة .. ولا سيما لىمن وجورىو الذين أسندا رأسيهما الى ظهر القعد ، وقد بدا عليهما

اعياء السكر . والواقع أن كلا منهما كان مشغول البال بما سيعنع فى ليلته ، ولكنه يشمر أنه

غير قادر على القيام من مجلسه . حتى إذا استبد بهما خدر الحمر ، ومالت عيناهما الى الغمض ، مال

فوتران على أذن لىمن وهمس له ساخراً :

— يا عزيزى الصغير ، لنا أنداداً للأب فوتران فى المكر ، حتى نشبك معه فى صراع غير متكافئ ... ثم هو يحبك كثيراً بحيث لا يدع لك فرصة الإقدام على حماقة .. مثل تحذير تابير مما ينتظره غداً ! ثم يا حبيبى نم ! وفى الوقت الذى تأخذك فيه هذه السنة من النوم ، يقوم صاحبى بشق طريقك الى ميراث تابير بعد سيفه الصام ... فوأت أخوها سينقل إليها ميراثاً صغيراً يبلغ دخله خمسة عشر ألف فرنك فى السنة

وكان إيجين المسكين يسمع كل حرف ، ولكنه لا يستطيع حراكاً ولا صفراً ، وكأن ضباباً كثيفاً قد ضرب أمام عينيه ... ثم خبت حواسه وراح فى غيبوبة ، فى حين انصرف بقية النزلاء ، كل منهم فى حجرته مشغولاً بحالة « السرور » التى سببتها له الحر ... عدا إيجين وجوريو والسيدات ... وعندئذ صاح فوتران :

— افقد سكر هذان !! ما أروع صورتكما ممأ !

ثم جهل بهزها فلا يستيقان ، فأسند رأسيهما الى المائدة ليناما أكثر راحة ... ثم قبل جين إيجين وهو يفتى :

« نم يا حبيبى نم .. »

« فأنا هنا ساهر ! »

فقال فيكتورين بقلق :

— أخشى أن يكون مريضاً ..

— ابنى إذن لاسهر عليه والعناية به !

ثم مال على أذنها وهمس لها :

— هذا واجب المرأة المخلصة المنيعة ... فهذا الشاب يعبدك عبادة !

ثم انطلق فوتران خارجاً ليحضر مركبة يصحب فيها صاحبة الخان الى ملعب من ملاعب التنزل كما وعدھا من قبل .. فقال جيم جوريو حتى كاد يسقط على الأرض ، فاشمأزت مدام فوكير وصاحت مستنكرة :

— ما أسخف أن يفقد رجل فى مثل سنه صوابه بفعل الحر . هذا لا يليق . رباہ ! إن

الرجل سبق ، فاحليه يا سيلفى الى فراشه

فوضعت سيلفى يدها حول خاصرة الشيخ وجرتة جراً فألقته بلباسه بمرض السرير ! ثم هبطت بسرعة للثلى نداء سيدتها التى كانت تصيح بها أن تسرع كي تعاونها فى لبس مشدھا الكبير كي تبدو فى أحسن حالاتها وأرشقها فى صحبة العملاق الذى تميل إليه لقوته وعجوه وسخائه أما مدام كوتير وفيكتورين فانشغلنا بالفتى إيجين ، تسندان رأسه الذى كان يترنخ فكاد يصطدم بأنائدة أو ذراع الكرلى . وهمت ان تأخذه مدام كوتير على كتفها ، ولكن رأسه مالت الى كتف فيكتورين التى كانت بادية الفلق عليه ، حتى لقد تحرك قلب مدام كوتير فراح

تربت على خدها في حنان . فقالت لها الفتاة وهي تتخلل باصابعها شعر الفتي :

— انه مع هذا لم يزد على كأسين يا أماء ...

— لو كان من مدمني الشراب لتحمل سورة النبيذ كما تحملها الآخرون .. فسكره شاهد على براءته . . .

ودخل فوتران في هذه اللعظة قادماً بالعربة التي سقله مع صاحبة الحان الى المسرح ، فآ رأى هذه اللوحة التي تكونها الفتاة والفتي ، حتى عقد ذراعيه فوق صدره وصاح :

— سبحانك ربى ! هذا لعمري مشهد خلىق ان يلهم أجل الصفحات لهذا الكاتب برناردان دى سان بيير ، مؤلف بول وفرجينى ! ان الشاب جيل يا مدام كونير ! انظرى : أما ترين ملكا ينام على كنب ملك ؟ انى لأغبطك يا فيكتورين ، فلو كنت امرأة لتثبت أن تتساح لى الحياة من أجله غيب

ولم تلبث مدام فوكير أن هبطت الدرج فى زينة ظاهرفيها الجهدوالعمل ، وقدتوهج وجهها لشدة ضغط الشد الكبير على خصرها الضخم ، وانصرفت تتأبط ذراع فوتران . ولم يد على ايحين ما يدل على قرب اذاقته ، غملته مدام كونير وفيكتورين بمعونة سيلنى الى حجرته ، فأرقده على فراشه ، وخامت سيلفى عنه ملابسه ، وغضته بمناية . فلما همت النسوة الثلاث بتفادرة الغرفة ، اختلست فيكتورين من وراء ظهر مدام كونير قبلة من وجنة الشاب المخمور . ثم شملت الحجره بنظرة مستوعبة خاطفة ، حتى تحتفظ فى قرارة نفسها بصورة المكان الذى يعيش فيه ومنها وفى هذه الليلة لم تنم فى باريس فتاة وهي أسعد من فيكتورين دى تايفير ..



سبق السيف العذل

وكان اليوم التالي من أبرز الأيام في تاريخ خان فوكير . قبل هذا اليوم لم يحدث في هذا الحان حادث يغير من رتابة الحياة فيه خلا ظهور الكونتس الزيفة ، ولكن هذا الحادث القديم سيطويه خول الذكر بالفياس إلى ماهو مزمع أن يحدث اليوم

وأول الظواهر الغريبة في هذا اليوم استغراق الشاب ايجين والشيخ جوريو في النوم حتى الساعة الحادية عشرة ، وأن مدام فوكير التي عادت من ملعب التمثيل بعد انتصاف الليل ظلت في فراشها إلى ما بعد العاشرة ، وحتى الخادم كريستوف نام إلى الضحي لأول مرة في حياته لأنه شرب كل ما تبقى من نبيذ فوتران فلم يقدم الإفطار إلا بعد موعده بكثير . وفوتران وحده هو الذي استيقظ مبكراً فخرج قبل الثامنة ثم دخل والمائدة ممتدة . ولكن الآنسة ميشونون كانت أول من هبط إلى القاعة وبقيت فيها وحدها ريثما يطوف الخادم والطباخة بحجرات التزلز لا يلاحظهم من نومهم الطويل . وانتهزت ميشونون هذه الفرصة فصبت في وعاء اللبن النقي الحامس بغهوة فوتران ذلك الخنجور الذي زودها به جوندورو ، ثم بدأ تطاير التزلز على القاعة ، وكان آخرهم ايجين الذي وجد في انتظاره رسولا من قبل البارونة دلفين دي نوسنجن يحمل اليه منها خطابا هذا نصه :

هـ لست أحب الكبرياء الكاذبة ، فلا أنكر عليك أنني انتظرتك الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل كما تنتظر المرأة الرجل الذي تحبه ! ولعمري إن الانسان الذي جرب مرة في حياته هذا العذاب الأليم لا يطاوعه قلبه على إذاقته لأحد ، وقد استنتجت من هذا أنك لم تحب من قبل . فاذا وقع لك فعوقك عن الحضور ؟ إن الفلق عليك ينهش قلبي ، ولولا خشيتي من إثارة قالة الدوه لكان حضوري للاطمئنان عليك بالأمر أقرب شيء إلى الوقوع . ففسر لي تخلفك عن الحضور . هل تشكو مرضاً ؟ أتوسل اليك أن تسعني بكلمة منك تنق غلبي وتؤكد لي عزمك على الحضور في أسرع وقت مستطاع .

فلما فرغ الفتى من تلاوة الخطاب جعل يصيح وهو يقتحم ذعة المائدة :

— ماذا حدث لي ؟ كم الساعة الآن ؟

فأجابه فوتران وهو يضع السكر في قهوته :

— منتصف الثانية عشرة ثم رشق الفتى بنظرة فاحصة هادئة ، فوجم الفتى وإن كانت أوصاله

ترنمد غضبا . وفي هذه اللحظة سمع أمام الباب صوت عربة مسرعة وقفت فجأة وهبط منها حاجب من حجاب السيد نايفير عرفته مدام كوتير لأول وهلة ، وكان بادي الرعب ، فصاح بالآنسة فيكتورين :

— يا آنسة ، والدك يطلب حضورك حالا . لقد حل بنا خطب هائل : فقد اشتبك السيد فريدريك شقيقك في مبارزة وأصابته ضربة سيف في جبهته وأعلن الأطباء يأسهم من نجاته ، ونسأل الله أن تكون هناك فرصة لتوديعه الوداع الأخير . . . فانه قد فقد الوعي ودخل في طور النزع

فتفت فوتران :

— يا للشاب المكبن ! ولكنه كان في غاية الحمق إذ اشتبك في هذه المبارزة . فهل يتشاجر المرء ولديه ثلاثون ألف فرنك دخلا سنويا صافيا ؟

فصاح في وجهه إيجين :

— سيدى !

فأجابه فوتران وهو يحسو قهوته يهدوء . والآنسة ميشونون ترمق احشاءه لها بعين لا تغفل :

— ماذا تريد يا بنى أن تقول ؟ أتريد أن تقول أنه لا تحدث في كل يوم مبارزات شتى في مدينة باريس ؟

وقالت مدام كوتير :

— سآتي معك يا فيكتورين

وأسرعت المرأتان كما هما إلى العربة . وقالت مدام فوكير :

— إن هذا لعزيز ! فآلموت يخطب خطب عشواء الليل ، فيتهبل الصغار قبل الكبار . وإنه لمن حسن طالعنا نحن النساء ألا تتعرض للمبارزات . وإن كنا تتعرض لآلام أخرى لا يتعرض لها الرجل مثل غائى الولادة . ولكن هذه المصيبة ستفيد منها فيكتورين قائدة كبرى ، سيضطروا والدها لاحتضانها -

والنفت فوتران إلى إيجين وقال له :

— ان التى كانت بالأمس مدممة هاهى قد أصبحت اليوم من ربات الملايين

وقالت له مدام فوكير :

— لعمري ياسيد إيجين لقد وضعت يدك على كنز فريد !

فتبتهت هذه العبارات الأب جوررو فنظر إلى الفتى باستغراب ، فأسرع إيجين يقول لمدام فوكير في تفرز ظاهر أثار دهشة الحاضرين :

— لاني ياسيدتى لن أتزوج الآنسة فيكتورين

وقال حاجب دلفين :

— انى فى انتظار الجواب ياسيدى

— قل انى حاضر

وانصرف الحاجب وابحين لا يزال فى حالة عصبية فى غابة العنف فهو يحدث نفسه ويلوح

يديه ، ثم هز كتفيه أخيراً وقال بصوت مسموع :

— ولكن ماذا أصنع ؟ ليس تحت يدي أى اثبات

فأقسم فوتران ولكن ابتسامته لم تغفل ، فقد سقط على الأرض بلا حراك ، وصاح

إيجين :

— حقاً ان فى السماء امدلا إلهيا !

وصاحت صاحبة الخان مذعورة :

— ما الذى جرى للسيد فوتران ؟

فأجابتها ميشونون :

— نوبة صرع ليس غير ...

وأسرع إيجين ليتنادى بيان شون طالب الطب . وتعاون كريستوف ومدام فوكير وبواريه وميشونون على حمله والصعود به الى غرفته . أما جوريو فلم يشترك معهم بل انصرف غير عابئ ليرى ابنته . وطلبت ميشونون إلى مدام فوكير أن تحضر لها زجاجة ايثير ، فغلا لها الميدان فترعت قبض الرجل وضربته على كتفه فظهر طابع الايمان أبيض اللون فى وسط الموضع المحمر من أثر الضربة ، فصاحت هى وبواريه فرحاً بالثلاثة آلاف فرنك ، وهى المكافأة الموعودة . وفى هذه اللحظة سمع صوت مدام فوكير قادمة . نهت وفى يدها زجاجة الأثير ، وهى لا تملك نفسها من الجزع على العملاق المريض ...



نهاية عملاق

ذهب ايجين ليتنزه في الحديقة العامة ليحاول استنجاح شتات أعصابه ويراجع نفسه فيما هو مقبل عليه ، فماد إلى ذاكرته حديث الأمس الذى دار بينه وبين جوريو ، عن ذلك المسكن المصرى الأنيق الذى أعد له ليكون عش غرام يستقبل فيه دلفين ، ويعيش فيه بدلا من النزول في هذا الخان الحقير . وأخرج خطابها فجعل يتلوه مرة أخرى ثم قال لنفسه :

— ان حبا كهذا هو طوق النجاة لفريق مثل — ولن أنخلي عن الأب جوريو ، فهذا الرجل يتألم في صمت ، فأسأكون له بمثابة الابن البار . وسيمعد الشيخ لأن ابنته مادامت تحبني فستانى ولا ريب لتمضية سحابة النهار في جوارى فيتسنى له أن يراها . أجل ان دلفين طيبة القلب ، على خلاف هذه التمجرفة اننا نرى دى ريسنو . فأسعدني بحبها ، وان أحلاى بالوصال سنتحقق ابتداء من هذه الليلة

ثم جعل ينظر في الساعة التى أهدتها اليه وقال :

— لقد تحققت جميع آمالى ، ولا ضير أن أقبل منها الهدايا والمعونة مادام الحب قد جعل منا شخصا واحداً ، وطبعاً طبعاً سأرد اليها هذا كله مضاعفاً مائة مرة حينما أصل إلى مقاليد الثروة . ولا جناح علينا أن نتعاب ، فهى في حكم المطلقة لأنها قطعت علاقتها بزوجها من زمن طويل وأوسدت دونه باب محدها . وعما قريب سيصير في امكانى أن أواجه هذا اللزاسى وأقول له : دع لى امرأة لم يعد في طاقتك أن تسعدها !

وهكذا أقنع القنى نفسه بأن من هو مقدم عليه حل له ، وأن ما تورط فيه لا يلحقه منه وزر ، فلما انتصفت الساعة الحامسة عاد إلى المنزل الذى سيفادره بعد يومين إلى غير رجعة كى يعرف هل مات فوتران أم نجا . فوجده حين دخل واقفاً على قدميه أمام المدفأة في قاعة المائدة التى تجتمع كل الثلاثاء عدا جوريو ، ملهفين على تفاصيل التغير الهائل الذى طرأ على حياة فيكتورين . فلما دخل ايجين انفتحت نظراته بنظرات فوتران التى ابتمت وقال للقنى وكأنه يقرأ أفكاره :

— لقد نجوت من الموت بأعجوبة ، فهل تراك آسف لنجاتى ؟

وفى هذه اللحظة سمعت ضجة يحدتها بضعة رجال وخفوفات عسكرية ، ثم ظهر أربعة رجال أولهم رئيس إدارة المباحث ومعه ثلاثة ضباط صاح أحدهم بين دهشة الحاضرين :

— باسم القانون وباسم الملك !



« سجلوا أنني أقر بأنني جاك كولان المشهور باسم قاهر الموت »

وساد الصمت قاعة المائدة ثم تقدم الضباط الثلاثة وأيديهم على مسدساتهم إلى وسط القاعة في حين انتشرت نلة من الجند حول جميع الأبواب والنوافذ وتقدم رئيس المباحث نحو فوتران فانزع من فوق رأسه طاقة الشعر المسمار ، فبدت رأسه ضخمة عاطلة إلا من شعرات حمراء . وصعد الدم إلى وجهه ولامت عيناه ييريق كيريق القط المتوحش ووثب من مكانه وثبة أطلقت صيحات الرعب من جميع الحاضرين ، فشهر الجنود والضباط عليه مسدساتهم وبنادقهم ، فأدرك أنه قد استحال عليه الفرار وأن المقاومة لاملائل تحنها ، فابتسم وأشار إلى طاقة شعره المزروعة وقال لرئيس المباحث :

— أراك لست اليوم في أدبك اليهود !

ثم مد كلنا يديه إلى الجنود وأومأ إليهم برأسه أن يقتربوا

— ضعوا فيهما الأغلال ، وأنا أشهد الحاضرين جميعاً على أنني لن أبدأ أى مقاومة

فصاح رئيس المباحث :

— اخلعوا عنه ملابسه

— وماذا ؟ ففي القاعة سيدات ثم أنا معترف وأسلم نفسي

وتعمل قليلاً وهو يدير في الحاضرين نظراته كما يفعل الخطيب حين يهم بالكلام

— سجلوا أنني أقر بأنى جاك كولان المشهور باسم قاهر الموت ، والمحكوم عليه بعشرين

سنة مع النفل

وعاد يتفحص وجوه الحاضرين ثم استطرد :

— من الذى وشى بى ؟

واستقر بصره على الآنسة ميشونون

— .. انه أنت أثبتا العجز الدرديس ! أنت التى دسست لى هذا الخدر، وفى استطاعنى

أن أجعل انقضى بلحك وأنا داخل السجن فى ظرف أسبوع واحد . ولكنى أعفو عنك ،

فأنا رجل غفور متسامح

وفى هذه اللحظة كان الجنود قد فرغوا من تفتيش حجرته وجاؤا يهيمسون فى أذن رئيس

المباحث بكلام جعل فوتران يقلب ناظره فى وجوه جيرانه السابقين ويشكر لهم عشرتهم الطيبة

ثم خطا خطوة نحو الباب مع حراسه والنفت إلى إيحين دى راستنيك فقال له بصوت رقيق

يفيض أسى :

— وداعاً يا إيحين ولكنى لم أتخل عنك نهائياً ، إذا حزبك أمر فهناك صديق يركن إليه

أوصيته بك ، وسيفه وماله تحت أمرك

واستمتع رغم انه يود الى .. كبل يديه أن يقلد حركات معلم السيف ، ففهم ايحين وحده من
الذى يمينه فوتران ، فهو صديقه صابط الحرس الذى بارز شقيق فيكتورين وقتله
وغادر فوتران مع الجنود خان فوكير الى غياهب الالمان . وأقبلت سيلفى الصباخة ترمط عارضى
سيدتها بالحل والكحول عماها تفريق من الانماء الذى أصيبت به . وهزت الصباخة السمينة
كتفها فى أسى وقالت متجسرة :
— ومع هذا فقد كان رجلا أى رجل . .



وكر الغرام

يوم حافل !

فتاة تنقلب من الفقر المدقع الى الثراء العائلي في طرفة عين . ورجل عملاق يصاب بالإغماء ، ثم ينكشف المستور ، فإذا هو مجرم هارب من اللابان ، وهو مع هذا يحب الفتى ايحيى لغير سبب ظاهر ، ويترك له عند صاحبه توصية باعطائه كل ما يطلب من مال ، وتقديم كل ما يحتاج اليه من معونة ، ولو اقتضى الأمر أن تزهق روح !

والفتى المبهوت سيستيقظ قرب الظهر ليجد خطاب عتاب و مناجاة غرام ، وليعلم أن السعادة تنتظره إذا جن الليل ، وكان قد حسب التعلق بوصول دلفين تعلقاً بالخيال . فلا غرو أن نراه مشغولاً بهذه الأحداث وما تركته في نفسه ، وهو مستقل العربية الى جوار الأب جوريو ، في طريقهما الى لقاء دلفين في « عش الغرام » الجديد

وكان الشيخ ظاهر السرور ، كأن أحداث اليوم لم تنل منه :

— لقد انتهى عهد الشقاء ، وستمشي الالبلة ثلاثتنا معاً . معاً ! أتدري ما معنى هذا ؟ معاً ! لقد اقتصت أربع سنوات منذ تمثيت آخر مرة مع عزيزتي دلفين . أما الالبلة فستكون لي طول السهرة ! وقد كنا معاً منذ الظهر في بيتك الجديد ، لإتمام الاستعداد لاستقبالك فيه . تالله لقد كنت سعيداً وأنا أعمل كالمعلمة الأجراء في نقل الأثاث وتنظيفه . . . والالبلة سأقبض ثمن هذا النعب ، فأنت لا تدري مدى طيبة قلب دلفين « خذ هذه يا بابا . فهي قطعة طرية وطمعها لذيد ! » . . . اليوم يا صاحبي يوم فاصل

— أجل يا أبا العزيز ، فقد زلزلت الأرض اليوم زلزالها !

— زلزلت زلزالها ؟! كيف ؟ فلست أرى في الشوارع إلا وجوهاً زهاها البشر ، كأن كل واحد منهم سيسعد مثلي بالعشاء مع ابنته . إنه عشاء لطيف يا ولدي العزيز ، سمعتها بأذني نضرب أصنافه من طبائح المقهى الانجليزى . . . مع أن الصاب والملمع يكون لهما طعم العسل في فم من يشاطرها الطعام . . . ماذا دهاك أيها الخوذي ؟ ما هذا الابهاء ؟ أسرع يا هذا . . . وسأعطيك خمسة فرنكات زيادة على أجرتك اذا بلغت بنا مقصدنا قبل عشر دقائق !

فاسمع الخوذي هذا القول حتى جعل يترق في شوارع باريس مثل السهم المربى . ولكن الأب جوريو جعل يتقلب في مقعده ويقول :

— تباً لهذا المودى ! إنه لا يتحرك من موضعه !

ووقفت العربية أخيراً فى شارع « دارتوا » ، فنزل الشيخ والشاب وصعدا سلم بيت من داخل رحبة ، وطرقا باب مسكن يطل على الجهة الخلفية من البناء ، فلا يرى السابلة فى الطريق العام من يمشى فيه أو يطل من نافذته . ولم تكن بالأب جورويو حاجة الى طرق الباب ، لأن الوصيصة « تبريز » كانت أسرع الى فتحه . فألقى ايمجين نفسه فى مسكن أنيق فاخر . تعلل حجرانه الثلاث على الحديقة الخلفية . وفى الصالون الفخم الرشيق رأى على ضوء الشموع دلفين دى نوسنجين تنهض من مجلسها بجوار المدفأة ، فاحتواها بين ذراعيه وضماها الى صدره بحرارة ، وقد دمعت عيناه من الفرح . . . ومسح الأب جورويو عينيه وقال لابنته :

— أنا خير بالفلوب . لهذا كنت واثقاً أنه يحبك أعظم الحب

وصحبت دلفين ايمجين فطافت به أرجاء الحجرات ، حتى دخلت به حجرة أذكرته فى تأنيبها وترتيبها حجرة دلفين الخاصة فى بيتها ، ولكنه قال مستغرباً :

— ولكن ليس هنا سرير !

فقال له وقد احمر وجهها ، ومى تضغط على يده بحرارة :

— أجل . . . لا سرير . . .

فأدرك مقدار وخز الحياء الذى تشمر به ، فأقبل عليها معانقاً مقبلاً :

— أنت فريدة بين النساء يا حبيبتي . . . وحبنا أيضاً فريد ، لهذا يجب أن نصوته عن

عيون جميع الناس

فصاح الأب جورويو :

— وأنا ؟ هل أنا أيضاً ضمن هؤلاء الناس ؟

— كلا يا أبانا . . . إنما أنت « نحن » . . . ونحن أنت . . .

— هذا ما أريد . لا تلقيا إلى بالا ، وكأننى غير موجود . لا تتحرجا أمامى . . . أرايت

يا دلفين كيف جاء اختياري سليماً ؟ إنك كنت غير مقتنعة ، ولكنى أصررت ، وهأتندى تحببها

ثمره السعادة . وهأتذا قد منحتك الحب كما منحتك الحياة !

وصاح ايمجين :

— ولكنى رجل فقير . ولا أستطيع أن أقبل هذه الأشياء كلها ، لأنها فوق طاقتي

المادية . .

فالتفت دلفين وهتفت به :

— إن رفضك لا يحمل إلا معنى واحداً ، هو أنك غير واثق من بقاء قلبك على محبتي دون

أن يتحول يوماً . . . أما إذا كنت تحبني ، كما أحبك أنا ، فلماذا تردد ؟ ولو عرفت مبلغ

هناقنى بالإشراف على هذا البيت وتصريف شؤونه ، لما ترددت لحظة واحدة . . . ثم . . .

ترددك في قبول هذه الأشياء التافهة ، وأنت تطلب مني ما هو أغلى منها ولا شك ؟ .. ولذي
بحب حقيقة ويطلب المنحة الكبرى ممن يحب ، خابق أن يستهين بأي منحة أخرى بجانبها ! ..
أقنعه يا أبي أنت ... حتى نستطيع أن نتمشى

— اسمع يا ولدي . إنك لازلت على أبواب الحياة ، فاصغ إليّ : هل أمامك وسيلة لدفع
تأمين هذا الأثاث غير الاستدانة من المرابين اليهود ؟
— هذا هو الحل الوحيد . . .

— عظيم ! هأنذا قد وقعت في الفخ . أنا هذا اليهودي الذي ستفترض منه . لأنني أنا الذي
دفعتم أثمان كل شيء ، وهذه هي « القوائيد » ومجموعها لا يتجاوز الخمسة الآلاف فرنك .
فأنت مدين لي بهذا المبلغ الذي أفرضك إياه . ولا يمكن أن يكون لديك مانع من هذا لأنني
لست امرأة حتى تستكشف أن تكون مديناً لي . ولا بأس أن تحرر لي سئداً بالمبلغ في أي
وقت . . .

فخال الدمع في عيون الفتى والفتاة وقد تبادلا نظرات الدهشة ، وشد راسنيتك على يد الشيخ
الصيب وقد عجز عن الكلام ، فقال جوريو ببساطة :

— ولم لا ؟ ألسنا مافلي العزيزين ؟

فسأله ابنته وهي لا تزال مبهوتة :

— ولكن كيف استطعت يا أبي أن تسدد من وراء ظهري هذه القوائيد ؟

— هاك : عندما رأيته وقد استخفك السعادة بتأسيس هذا المسكن كأنك هروس
تشتري جهاز هرسها ، قلت في نفسي هامي ابنتي ستورط نفسها في عسر مالي سيكدر عليها
سعادة حبها الناشئ . وقد قال لي الخماي إن إجراءات استرداد بائنتك من زوجك يلزمها ستة
أشهر على الأقل . فبعت جزءاً من إيرادي السنوي وسددت أثمان هذه الأشياء . وقد بقي لي
من الأيراد مائة فرنك شهرياً تكفي بنى ونفيس عني ، فبني سأشعر كما لو كنت أميراً متوجاً في
غرفة السطح التي تعلو هذا البيت ، ما دمت متمتعاً برؤيتكما سعيدين

فهجمت عليه ابنته واحتوته بين ذراعيها فأجاسها الشيخ على ركبته كما لو كانت طفلة صغيرة
وحل يهددها ويداعب شعرها وخديها ، ثم صاح بها :

— إنني لم أشعر منذ عشر سنين بمثل هذه السعادة ، فلا تريدني منها ولا فتاتني فن قلبي
يكاد ينشق من سرعة دقاته ، دفعت الفرح

ثم احتضنها بشدة فصاحت :

— لقد أوجعتني !

— أوجعتك ؟

وشعب وجهه شعوباً شديداً وجعل يتألمها في فزع ، فهبت ابنتين لهذا الإخلاص الذي يصل

الى حد الهوس ، ولكنه لم يخل من إعجاب شديد بهذا الحب النادر
وأقبلت دلفين على الشاب فتخللت شعره بأصابعها وقبلت جبينه . فقال لها أبوها :
— اعلمي أنه رفض من أجلك الزواج من الآنسة تايفير وريثة الملايين . أجل يا ابني ، إن
الفنائة كانت تحبك حباً حقيقياً ، وهامي قد غدت بموت أخيها صاحبة ثروة خيالية
فصاح به ابني عاتياً :

— ما كان ينبغي أن تقول هذا الكلام
— عفوك ! فهذا أسعد يوم مر بي منذ زواج ابني . والآن لا أبالي ما يجري على به من
قضاء الله ، فقد قوت عيني برؤية عزيزتي دلفين في قبة السعادة . ماذا ؟ إنني قد تمتعت في هذه
الساعة الواحدة بمقدار من السعادة لا يستطيع أن يشعر به جميع أهل الأرض في حياتهم طولها .
والآن الى العلمام !

وانقضى الطام في فعال صبيانية ، فقد كان الشيخ الذي تاهز السبعين أحدث سنأ في هذه
الليلة من الشابين العاشقين : فهو يرقد تحت أقدام ابنته حيناً ليلتها ، وحيناً آخر يحدق في
عينها برهة طويلة ، أو يمرغ وجهه التفضن التهلل الأسارير في هدب ثوبها . . . فقد كان
الرجل مخوراً دون أن تمس الخمر شفتيه ، فهو يحب ابنته الى حد السكر بطلعتها والتلى بحدبها
وأخيراً قال الفنى :

— أرى أنه لا بد أن نفرق الليلة ، فليس هنا مكان للبيت
— غداً سيكون كل شيء قد تم لإقامتك . ولكن لا تنس أنك ستتعشى معي في بيتي ،
لأن الليلة المقبلة من ليالى الأوبرا الإيطالية
وقال الأب جوريو :

— سأذهب أنا أيضاً ، ولكن في الصالة مع عامة الناس ، حتى أستطيع أن أمتع برؤيتكما
وأتما تزيان المفصورة

— الى غد إذن . . .

وكان الليل قد انتصف



الدعوة المشتهة

ونحو ظهر اليوم التالي تلقى ايمجين خطاباً أنيقاً عليه شعار آل بوسيان ، وجد فيه دعوة موجهة الى البارون والبارونة دى نوسنجين لحضور الحفلة الراقصة الكبرى التى تقيدها الفيكونتس دى بوسيان ، ومع الدعوة رقعة بخط الفيكونتس : « لقد خطر لى أنك ستقبل عن طيب خاطر ابلاغ تحياتى الى البارونة دى نوسنجين . وانى أرسل اليك مع هذا الخطاب الدعوة التى طلبتها منى ، وأنه ليسرنى أن أعترف الى شقيقة الكونتس دى ريسنو ، فأحضرها معك ، وتقبل تحيى . . . »

فلما تمنع الفتى فى هذه السطور أدرك ان ابنة عمه لا تأمل الى حضور البارون حفلتها الراقصة فسر لهذا وأسرع الى بيت دلفين لأنه يعلم أنها ستسمر سروراً لا مزيد عليه بهذه الدعوة التى طالما اشتتها ولم تكن تحلم أن تحصل عليها يوماً ، فوجدها فى الحمام ، فانتظرها فى حجرة زيتنها وهو يتحرق شوقاً الى استجلاء طلعتها ، ووردت على خاطره صورته وقد أقبل من الريف منذ سنة ساذجا خاملا خجولا فقيراً منبوذاً ، فاذا هو اليوم أنيق له حضارة عند الحسان ، وله عشيقة من أجل وأبرز نساء المجتمع الباريسى ..

ونبهته الوصفة تبرز الى خروج سيدتها من الحمام ووجودها فى مخدعها ، تخف الى هناك ليجدها مستلقية على مقعد طويل بجوار النار وعليها غلالة من حرير موصلى ، فبادرها بهوله :
— ما تفنين أننى أحمل اليك ؟

وجلس الى جوارها وتناول يدها ليقبلها
وندت عن دلفين صيحة فرح طامخ حينما قرأت الدعوة ، وحولت الى ايمجين عينين مخلصين بالدمع وطوقت عنقه بذراعيها لتضمه الى صدرها فى نشوة عارمة من السرور المزوج بالزهو
— اننى مدينة لك انت بهذا الهناء . اجل اننى اسمى هذه الدعوة باسم الهناء ، لأنها أكثر من نصر اجتماعى يعجيبها عن طريقك أيها الحبيب . فما من أحد رضى أن يقدمنى الى المجتمع الراقى أو البلاط حتى جئت أنت . .

— ولكن ألم بيد لك أن الفيكونتس قد أظهرت فى خطابها رغبتها عن حضور البارون معك . ؟

— أجل هذا واضح ، ولكن ، الضير ؟ سأذهب وحدى معك . ان شقيقتى ستكون

هناك . وقد نما الى أنها تستعد لهذه الحفلة بثوب رائع . إنها تتظاهر بالمرح في هذه الحفلات في
المدة الأخيرة لتخفي سرها الهائل : فقد استدان مكسيم دى تراى مائة ألف فرنك وقات وقت
سدادها وتهددته القضيحة ، فأقدمت انستازى على بيع مجوهراتها الثمينة ، مجوهرات أسرة زوجها
التي تتوارثها كونتس دى ريسنو من حماتها جيلا بعد جيل . ويقال أن زوجها قد اكتشف
الأمر أو كاد . فأنا أتوقع في هذه الحفلة أن تكون شقيقتى في أبهى زينة لتقطع السنة المنقولين
وستنجهد على المحصور في ذلك لأننى سأكون حاضرة وهي تحب دائماً أن تتفوق على . ولكنى
في هذه المدة سأنفوق عليها ، ولو بنور السعادة الذى يشع من وجهي بحبك

وافترق الماشقان على موعد اللقاء الذى لا فراق بعده

وهكذا بات إيجين ليلته على ثقة من أنها ليلته الأخيرة في خان فوكير . فلما مر الفنى بباب
جوريو حاول الشيخ أن يستوقه ، ولكن الفنى قال له وهو يمضى :

— غدا سأقصر عليك كل شيء ، أما الليلة فدعنى أنام لأننى متعب ، ولأن الانتقال الى
مكنتا الجديد سيجتاج الى جهد جهيد



دلفين عند أبيها

وفي اليوم التالي كان إيجين وجوريو على أتم أهبة لمغادرة الحان عند حضور حاجب من لدن البارونة يخبرهما أن الوقت قد حان . ولكن قرب الظهر سمعت في الشارع الهادى ضجة عربية فارهة تقف أمام باب الحان مباشرة ، ونزلت منها البارونة دى نوسنجين وسألت إذا كان أبوها لا يزال موجوداً بالحان . فلما أجابتها سيلنى الطباخة بالايجاب أخذت تصعد الدرج في خفة . وكان إيجين في حجرته والأب جوريو يظنه قد غادر الحان الى المدرسة ، ذلك أنه عاد ليتأكد من أنه لم يترك . من خصوصياته في الهجرة لم يضعه في حقائبه . وسر كئيداً عندما وجد في درج النضد ذلك المد الذي كان قد كتبه فوتران واسترده منه إيجين في اليوم التالي . ولما كانت المدفأة خالية من النار في هذا الوقت فقد فكر في تمزيقه ، عندما سمع صوت دلفين فأنصت ليقينه اعتقاداً منه أنه ليس لها أسرار تطويها عنه . ومن أول عبارة سمعها وجد الحديث شائناً بحيث استمر في الاصفاء إليه :

— الحمد لله يا أبى انك طلبت رسمياً في الوقت المناسب فصل ثروتى الخاصة عن ثروة نوسنجين قبل أن يلحقها الحراب

— ماذا حدث إذن حتى لم تطبق صبراً بضع دقائق أخرى نكون بعدها معاً في شارع دارتوا — آه يا أبى ! وهل تكون للانسان سيطرة كاملة على أفعاله وحركاته حين تلم به كارتة من الكوارث ؟ لقد طار صوابي ، فقد أطلعنا عماميك على الكارتة قبل أن يذيع خبرها بين الكافة ، فان المحامى لما رأى زوجى يقيم من الاعتراضات والمقبات المفتلة شيئاً لا آخر له حتى لا يؤدي إليه بائنتى ، هددته بقضية مستعجلة وباقامة حارس فضائى . فدخل على نوسنجين هذا الصباح وسألنى هل أسمى إلى خرابه وافلاسه سعى مجتهد ؟ فأجبتة أنني لا أعرف شيئاً عن هذه الاجراءات ، وأن كل ما أريده هو مالى الخاس الذى يجب أن يكون تحت يدي ، وأن كل ما يتصل بأمر هذا المال موكل الى المحامى . أليس هذا يا أبى ما أوصيتنى أن أقوله ؟ — أجل

— فشرح عندئذ يبسط أمامى موقفه المالى ، فقد ألقى بجميع ما تحت يده من الأموال — ومنها بائنتى طبعاً — في مشروعات ناشئة لم تأت منها أية ثمرة بعد . فاذا ألزم برد بائنتى في الوقت الحاضر اضطر إلى تقديم دفاتره وعلان افلاسه . في حين أنني إذا أمهلته عاماً آخر فانه

يتعهد بعرفه أنه يرد إلى مالى ضعفين أو ثلاثة أضعاف . وقد لمست فيه يا أبى حرارة الصدق ، وأقبل على متوسلاً مستغفراً عما سلف منه فى حق من سوء المعاملة ، ورخص لى فى الحياة على هواى ، لا رقابة له على شأن من شؤونى أو مسلك من سلوكى ، بشرط أن أدع له حرية التصرف فى مالى باسمى . ووعدتى أن يستدعى محامينا قبل كل عمل خطير تتأثر به ثروتى . وطلب كذلك أن يظل ميزان الصرف على حاله فلا أغرق فى الوقت الحاضر أكثر مما يسبح لى به ، وبرهن لى على أنه بوضعه الراهن فوق قدرته ولكن ستر المظاهر ضرورى . ومما دلنى على صدق هذا الزعم أنه سرح الراقصة التى كان يحوزها . فلما شددت عليه التكبر وكابرت فى التسليم بصدقه ، قدم لى دفاتره وأطلعنى على الحقيقة المؤلمة ، ثم بكى ، وجعل يتكلم عن الانتحار وكأنه جن ، فهو يهذى ويهرق حتى أخذتني به الشفقة

— وهل انطقت عليك هذه الحزعلات ؟ انه ممثل . سلبنى أنا فقد احتككت بالألمان فى ميدان الأعمال ، وهم فى الغالب حسنو النية مستقيمون ، ولكن إذا خطر لأحد منهم أن يستعمل الحبث تحت ستار الطيبة والصراحة ، فانه يقدو نعلباً ذا دهاء . ان زوجك يستغل طيبة قلبك ويريد أن يستغل اسمك أيضاً كما استغل ثروتك فى أعماله المهددة بالحرب . كلا ! لن أرضى هذا لك ، فازلت خبيراً بالتجارة عارفاً بأسرار الأعمال . انه يزعم أنه وضع جميع الأموال فى مشروعات ناشئة . فهو إذن يملك تحت يده أسهماً وانفاقات فى مقابل هذه الأموال . فليقدمها إذن وليحول إلينا نصيبك منها بحسب ما يخصك . وأعدك أن أختار أحسن هذه الأسهم وأكثرها ضماناً . أم هل يظن بنا الغفلة وقصور العقل ؟ أم تراه يحسبني أصبر يومين لا عامين على تركك بلا مال وبلا سند فى الحياة ؟ هذا أمر لن أقبله أبداً ، أم هل ترائى أكدهج أربعين سنة مديدة لكي ينتهى الحال بترككما مجردتين من ضمان لقمة العيش ، ولكى أرى كل هذا التعب والاجتهاد يتبدد أمام عيني كما تتبدد حلقة من الدخان ؟ وإنى لأقسم بكل مقدس فى الأرض والسماء اننى سأسوى الأمر معاً بما يصون مصالحك ويرد عنك شره هذا المحتال . سأراجع دفاتره ، ولن يغمض لى جفن أو أهنأ بطعام أقيم به أودى قبل أن أتحقق من صيانة أموالك كاملة . وإذا لم نسمعى المحاكم التجأت إلى البرلمان . سأقلب الدنيا قبل أن أسلم لحظة واحدة بتجريدك من هذا المليون الذى شقيت طول حياتى لأوفره لك . يا لاهى ! إن ناراً حامية تستمر فى صدرى وأحشائى ، وكأن حريقاً هائلاً قد شب فى دماغى . دلفين ابنتى لا تملك ثروى تقير ؟ كلا وربى ! أين قفازى ؟ هيا بنا ! هيا بنا لنطلع على الدفاتر الآن ونضع يدنا على المراسلات والحزينة ونفحص كل شئ فى الحال . فلن أعرف لنوم طعماً قبل أن أطمئن عليك . هيا قبل أن تسنح الفرصة ليهرب بما اختلسه من مالك ، لأنه موقن أننى لن ألتصع بالوحد ذلك الاسم الذى تحمله ابنتى — مهلا يا أبى ! إنى أشفقت عليك ولم أصارحك بكل شئ . أنتدرى ماذا فعل هذا الوغد على التحقيق ؟ أنتدرى ما هذا الذى يسميه مشروعات ناشئة لا تزال عقيماً ؟ انه يشتري الأرض

الفضاء باسمى ثم بينى فوقها بيوتاً تحت ستار أشخاص آخرين يتماقدون مع المفاولين على تسديد التكاليف على آجال طويلة ، ثم يبيعون زوجى البيوت بعد أن تم بتمن بنس ، ويعلنون بعد ذلك إفلاسهم للتخلص من ديونهم قبل المفاولين . أما البالغ ذات القيمة التى تحت يده فانه يشتري بها عقارات وأسهما باسمه خارج البلاد ، بحيث لا تصل إليها أيدينا وفى هذه اللحظة سمع لمعين صوت سقطة قوية ، فقد انهار الأب جورىو على أرض غرفته وهو يصبح بصوت متعرج :

— وا رحمته لك يا ابنى ! لماذا رضىت أن أسلمك لهذا الوغد الذى اعتصر دمك واشفاك ؟
— وهل تدرى يا أبى المعنى الذى قصد إليه بمنحى الحرية ؟ انه يعنى بذلك مساومتي على ترك الجبل لى على النارب فى علاقتي بإيعين فى نظير تخويل اياه المضى فى استغلال ثروتى . فهو يريدنى أن أدفع هذا الثمن إذا شئت إلا أعنتل فى البيت فلا أتصل بإيعين . ولكن لماذا تلوم نفسك الى هذا الحد ؟ ان الخطأ خطئى أنا لأننى أنا التى تخيرت هذا الزوج ، فلا تبك يا أبى
— ولا تبكى أنت أيضاً يا دلقين . قربى عينيك حتى أجف دمههما بشفتى . هه ! انه ضيقى لأستعد لمساولة هذا النصاب

— بل دعنى أنا أتصرف فى الأمر ، فهو يعينى وأنا مستطيعه أن أستغل سلطانى عليه لاستخلاص جزء من حق . ولكن تعال غداً لتطلع على الدفاتر ، فالحمى لا يفقه شيئاً فى الأساليب التجارية . بل ليس غداً ، فانى لا أريد أن أكدر دى فى اليوم السابق للحفلة الراقصة الكبرى عند الفيكوتنس دى بوسيان ، بل أريد أن أبداً جميلة سميده فى صحبة عزيزى إيعين .
فهيا بنا لأرى حجرته ...



المصائب لاتأتى فرادى

ولكنهما لم يتحركا من موضعهما، لأن صوت انستازى دى ريتو سمع فى السلم، وهى تصعدا نهياً إلى حجرة أبيها، فأخذ حضورها فى هذه اللحظة يعين من انكشاف وجوده فى حجرته وسماعه هذا الذى سمع

فلما سمعت دلفين صوت أختها، قالت لأبيها :

— آه ! ألم يبلغك شئ عن انستازى ؟ فانه ينحىل إلى أنها تعاني متاعب هـى أيضاً فى بيتها

— ماذا تقولين ؟ هذا فوق ما أحتمل . ان هذه تكون ثالثة الأثافي وخاصة الظهر ! أما تأتى المصائب أبداً فرادى ؟

ودخلت الكونتس ، فأدهشها أن تجد دلفين عند أبيها فى هذه الساعة ، وشعرت بشئ من التخرج والضييق . فقالت لها دلفين :

— أهلا « نازى » ... أيدعشك أن ترى هنا ؟ لانتفري هذا ، فانى أنا أراه يوماً ولا أقصر فى ذلك !

— منذ متى ؟

— لو كنت تأتين لزيارته ، لعرفت منذ متى ...

— دعى الناكفة باقة يادلفين فانى امرأة شقية ... أدركنى يا أبى ، فقد قضى على القضاء الأخير هذه المرة

— ماذا ألم بك يا ابنتى ؟ صرحى بكل شئ ، وأنت يادلفين تلعطنى معها ، فيجب أن نتعاون فى وقت المحنة ... فان هذا يجعلنى أحبكما أكثر مما أقدر ، لو أن هذا فى الامكان !

فقالت دلفين وهى تربت على أختها وتساعدتها على الجلوس :

— تكلمى يا « نازى » ، فأمامك الشخصان اللذان يحبانك فى هذه الدنيا حباً خالصاً لاهية فيه ولا زغل ...

وقربت من أهما « الأملح » حتى يفرخ روعها ، فلما استردت هدوءها قالت فى أسى :

— سأموت يا أبى ! ان زوجى يعلم كل شئ . أتذكر يا أبى ذلك الدين الذى كان مستحقاً على مكسيم منذ مدة ؟ انه لم يكن الأول من نوعه ، فما أكثر « الشيكات » التى يمررها وليس مقابها مايفطها ... وكـم من مرة قت بدفع قيمتها . ومنذ أكثر من شهر بدلى مكسيم كثير

الشهود ، ولكنه لم يصرح لى بشيء ... بيد أن المرأة تحذف قراءة سرائر الذين تحبهم . ثم انى لاحظت مبالغته فى الرقة والتوله .. فأسكين كان يودعني بهذه الرقة الوداع الأخير ، لأنه كان عازماً على إفراغ مسدسه فى جبهته . فشددت عليه ، وضيق الحناق ، حتى اعترف لى بالحقيقة بعد أن ظلت راكمة على ركبتى أمامه ساعتين ، أتوسل ، وأبتهل ! فهل تدرى كم فرنكا قيمة الشيك الذى حرره بلا رصيد ؟ مائة الف فرنك ! لجن جنونى يا أبى ، فلست تملك هذا المبلغ ، لأنى أتيت على كل ما كان باقياً لديك من ثمالة ثروتك ...

— أجل يا ابنتى ، ليس معنى هذا المبلغ ، ولا طاقة لى بالحصول عليه ، اللهم إلا إذا سرقته ... ولكنى كنت مستعداً أن أسرقه .. وسأسرقه لك إذا شئت !

وأمام هذه الصيحة التى لانتبت إلا عن قلب استبد به الألم ، ووقف بصاحبه على أبواب الجنون ، وجت المراتان ، وقد تحرك قلبها لهذا الشقاء المبرح الذى أورثته والدما العلوف .. ان كارتنيها هى التى سببت له هذا ، فندت عنه هذه الصرخة التى كأنها حجر ألقي به فى هوة بعيدة النور ، فكشف عن مبلغ عمقها البعيد ... وقالت له انتازى وهى تتخبط فى البكاء ...

— لقد فملت أنا هذا بدلا عنك يا أبى : فقد نشدت هذا المبلغ بالتصرف بما ليس ملكاً لى !

فاتحضنت دلفين أختها وبكت على صدرها وهى تصيح :

— واأسفاه ! إذن كل ما قيل صحيح ..

وتأثر والدما لهذا التعاطف الذى جاء متأخراً فصاح بهما :

— لماذا لم يجتمع قلبا كما يا ابنتى إلا على خطب داعم ؟ ..

واستطردت الكونتس وهى تخفف دمعها عينا :

— .. فلكى أقد مكسيم من الفضيحة والعار ، وأخذ حياته من الانتحار ، ولكى أقد

هنائى الملق بشخصه ، جمعت مجوهرات أسرة ريستو ، التى قدمها لى زوجى لانتحى بها فقط ، وحملتها إلى مراب يهودى قاسى القلب ، يدعى « كوبسك » ، و ... بعتها ! بعتها وأنقذت حياة مكسيم . . . ولكنى وضعت حياتى أنا تحت الخطر بدلا منها . . . فقد عرف ريستو كل شيء . . .

فصاح جوريو عنقا :

— من الذى قال له .. من هو ؟ سأقتله !

— .. بالأس دعانى لموافاته فى حجرته ، فلما ذهب قال لى بصوت بارد كالثلج : « أين

المجوهرات ؟ » فقلت له « عندى . فى دولابى » فأجبنى بنفس الهدوء القاتل : « كلا ! انها هناك ، فوق هذا النضد ! » ونظرت فاذا هى موضوعة تحت منديل غطاها به ، وقال لى : « وانت ترفين طبعاً من أين أحضرتها السامة » : فسقطت تحت قدميه على ركبتى باكبة ، وقلت

له أننى أمته ، وأن له أن يختار لى الميتة التى يرضاها ..
 — أقلت له هذا حقاً يا ابنتى ؟ أقسم برب العزة والجبروت أن من مس شعرة واحدة من
 شعر رأسك ليدفن ثمنها حشاشة روحه ! لئن أقطعه أربا أربا مثل ...
 واقتلت الكلمات على فم الشيخ الهاج بالفضب ، فسكت ، وقالت بنته :
 — بل هو قد طلب منى ما هو أسمى من الموت وأدمى . . . ولا كتب الله على امرأة فى
 الدنيا أن تسمع مثل هذا الذى سمعت منه على كرهى .
 — سأقتل هذا الرجل ! سأخفه بيدي ! سأقطع أوصاله ! ولكن المومنون لبيت له
 إلا حياة واحدة تزهق . تخميت لو أن له مائة حياة لأزهقها كلها واحدة بعد واحدة !
 — لقد نظر إلى برهة وهو صامت ثم قال لى : اسمى يا انتازى ، انى مستعد أن أجر على
 ما حدث ذيل الصمت ، فنبقى مما ، فان لنا طفلين يحملان اسمنا . وسوف لا أقتل مكسيم
 دى ترى لأن البارزة قد تزودى إلى قتلى ، وإذا قتل هو تعقبني سلطنة القانون ، وأما قتله
 وأنت فى أحضانه فانه يطلع اسمى واسم أسرقى بالعار . فابقاء عليك وعلى الصفاين وعلى أنا
 أعرض عليك شرطين . فهل فى هذين الصقلين ولد من صلبى ؟ فقلت له : « أجل » فسألنى :
 « أيهما ؟ » فأجبته : « ابنتا البكر أرنت » فقال : « حسناً ! والآن اقدمى أن تطيعينى فى
 أمر واحد » فأفسمت ، فقال : « عليك أن توقى عقد يبعك كل ماتملكين لمصاحتى منى طلبت
 اليك ذلك »

— لا توقى ! لا تقبلى هذا أبداً ! ماذا إذن يا سيد دى ريسو ! ماذا نطننا ؟ وماذا نطن
 نفسك ؟ انك لا تعرف كيف تسعد امرأة ، فاذا نشدت السعادة حيث وجدتها ذهبت تعاقبها على
 مجزك . ولكنى هنا وقف عند حدك لأننى واقف لك فى الطريق ! أجل يا ابنتى ، اهدنى بالا ،
 فانه قد عرف الآن وريته ، ولكنى سأخطف هذا الوريث ، سأخطف ابنه ، الذى هو
 للأسف حفيدى ، فأخفيه فى قريتى ، ولكن لا تخافى ! فسأحافظ عليه كنور عيني ، ثم اضطره
 إلى رفع الراية البيضاء بأن أقول له : « إذا أردت استرداد ابنك ، فأعد لى ابنتى جميع ممتلكاتها
 ودعها تحيا على هواها »

— أبى العزيز !

— نعم نعم أنا أبوك العزيز ! أبوك بمعنى الكلمة ! أياظن هذا النبيل أنه مضى التصرف
 فى حياة ابنتى ؟ يا للسما ! لست أدرى ما هذا الذى يسرى فى عروقي كالحميم ! لئن أحس كما
 لو كنت قد اقبلت نيراً هائجاً . ولا يجب فأننا عندى الحياة كلها . ولكن ماذا عا كما نعملان
 حين يطوبنى الموت ؟ ربى ، لماذا لا نطيل عمر الآباء ما طالت أعمار بنينهم حتى يحوطوهم بالرعاية
 حتى النهاية ؟ إن الآباء قلوبهم متعلقة ببنينهم فكيف سمحت رحمتك أن تدومهم فيهم بمكروه
 ينزل بهم ؟ آه يا ابنتى ! هاأنذا تحتجمان بى أخيراً كما كنا فى العهد الحالى قبل أن يفسد الاصهار

حياتي . ولكني وأسفاه مدين للخطوب والنوازل بهذا الاجتماع ، فلا أحظى برؤيتكما إلا والدمع يخلل وجنيتكما ! ولكن لاعليكما ، فان قلبي كبير وينسج لآلامكما وفي استطاعته أن يحملها عنكما . ماذا ؟ بل انكما لو حطمتا قلبي لصلحت كل قطعة متناثرة منه أن تكون قلبي أبويا يذبض بحبكما ويألم لسكما

— ولكن هذا ليس كل شيء . يا أبي

— أهنأك شيء آخر أيضا يا استازي ؟

— أجل . فاني لم أتمكن من بيع المجوهرات بمائة ألف فرنك كاملة ، فأقيمت الدعوى على مكسيم وان لم تنظر بعد ، فلا يزال ينقصنا اثنا عشر ألف فرنك . وقد وعدني أن يقلع عن اليسر . وأنت تعلم أنه لم يبق لي في الدنيا إلا حيي له ، فلا أطيق أن أحرم منه بعد أن دفعت ثمنه غالبا من راحتي و ثروتي وسمعتي وأمن سري ، بل وأولادي . فاجتهد يا أبي في إنقاذ حريته وشرفه حتى يتسنى له أن يكون نفسه ثروة من جديد ، فلا يخرج ابنتا إلى العالم مجرداً من كل درهم ، لأن ريتو سيحرمه من ميراثه كله ولامرأه

— وأسفاه ، لست أملك هذا المبلغ . فلم يبق عندي شيء يساوي هذه القيمة ، فليس لي إلا ما يمدني بدخل لا يزيد على ألف ومائتي فرنك في السنة مدى الحياة

— وأين ذهب إيرادك الدائم ؟

— بعته غير محتفظ إلا بهذا الشيء البسيط لحاجاتي الضرورية فقد احتجت إلى اثني عشر ألف فرنك لتأنيث وكر صغير لدافين

— فهمت . من أجل دي راستنيك اذن . يا شقيقتي المسكينة ، انعطلي بما حدث لي ودعي

هذه التزوات

— ولكن دي راستنيك يا أختاه شاب مهذب لا يقدم على تحطيم حياة عشيقته

— شكراً لك يادافين ، فقد كنت أتوقع في عنتي أن تكوني ألطف من هذا ، ولكنك

لم تحبيني قط

— وهل أنت التي تحبيني ؟ ألم تطارديني بدسائلك في كل مكان وتعملي على إغلاق جميع الأبواب في وجهي ؟ وهل كنت أنا آتي إلى أبي كل يوم لأبتهز منه ألف فرنك في إثر ألف فرنك حتى أتيت على جميع ما كان يدخره وانتهيت به إلى هذه الحالة ؟ هذا عملك يا أختاه وفعل يدك . أما أنا فسكنت أحضر لرؤيته لغير غرض ، ثم انا لم أعلم إلا في هذه اللحظة أنه اهتق في سبيل هذه الاثني عشر ألف فرنك . ثم ليس من عادتي إذا أهداني أبي شيئاً أن أبدهه وأبيعه — أنت تقولين هذا لأن عشيقك دي مارساي شاب غني لم يكلفك شيئاً . وداعا ، فليس

لي في الدنيا أخت ولا

فصرخ الأب جورويو :

— اخرسى . . ماذا جرى لكما حتى تتخاصما هكذا أمامى ، أتريدان أن تقضيا على القضاء الأخير ؟ . . .

— انى أغفر لك يا نازى ، فأنت مسكينة شقية . . لهذا لا أحاسبك على جميع ماسلف منك فى حق من المكائد طيلة السنوات التسع الماضية
— يا بنتى العزيزتين ، تعافا وتصافيا فكلكما ملك كريم . فصاحت الكونتس ممرضة ومى تدفع عنها يد أيها :

— كلا .. دعى . . أنها أقل رحمة بى من زوجى نفسه
— يا أختى انى أفضل ألف مرة أن تنفولى على بأبنى مدينة لوى مارساى من أن يقال عنى أن عشيق دى ترأى كلفى مائى ألف فرنك كما كلفك

وهنا ابتداء الشجار ينتقل من التراشق بالألفاظ الى الرغبة فى التماسك بالأيدى . فاندفع الأب جورويو يحول بينهما ، ثم أخذ الكونتس بين ذراعيه ليهدى روعها ، ووضع كفه على فها لينهها من الاسترسال فى سب أختها ، فاذا بها تصيح به فى اشتزاز :

— ما هذا يا أبى ؟ ما هذه الرائحة العالقة بيدك ؟
فجعل الرجل الطيب وأخذ يعتذر اليها قائلاً وهو يمسح يديه فى بظلوله :
— لا تؤاخذينى ، فاكنت أعلم أنك آتية فى هذه الساعة ، وكنت منهمكا فى ترتيب حوائجى . . !!

وكان الرجل قد سر بتحول جانب من غضب ابنته اليه . أما دلفين فرأت لما هدأت أمارات الألم للبرح مرتسمة على وجه شقيقها . . فقالت لها فى إخلاص :
— سامعيني يا أختاه فقد أخطأت .. تعالى قبلى
وتعانقت الفتاتان فسرى عن الرجل ما كان يجده . وعاد الى التفكير فى مشكلة بنته الكونتس فأخذ يجذب شعر رأسه ويقول :

— آه لو كنت أعلم مكانا أسرق منه هذا المبلغ ، ولكن حتى المرفقات أصبحت عسيرة فى هذه الأيام .. لم يبق إذن إلا أن أموت ، ما دمت قد بت ولا هم فى لبنى . ابنتى تحتاج الى شئ وتطلبه منى ولا أستطيع ان أقدمه لها ؟ ما قيمة الحياة بعد هذا ما دمت لم أعد أبأ صالحاً . !!

وأخذ يدق رأسه بكلتا يديه كمن به مس . فأقبلت ابنتاه عليه تمنعانه وتحاولان تهدئته ، فأنشأ يبكى . فما كان من إيجين الذى كان لا يزال واقفاً فى غرفته ينسقط السمع إلا ان تناول أمر الصرف الذى كان فوتران قد أعطاه إياه ، وصحح الرقم فجعله اثنى عشر ألف فرنك لأمر السيد جورويو ، ودخل حجرة الشيخ فوجه الخطاب الى الكونتس دى ريبستو قائلاً :

— هذا هو المال الذى تطلبينه يا سيدتى . فقد كنت نائماً فأيقظتنى مناقشتكم الحسامة ، وعرفت منها القيمة الحقيقية للبلغ الذى يديننى به السيد جوريو . وأتى أعد بشرى أن أدفع المبلغ ، فهو ممكن التحويل لأي مصرف

فرمقت الكونتس شقيقتها بنظرة صاعقة وقالت لها :

— أستطيع أن أغفر لك كل شئ . يا دلفين إلا هذا . كيف تعلمين أن السيد ايميجين موجود فى الحجرة المجاورة ثم تستدرجيننى لكى أبسط أسرارى وتفاصيل حياتى الخاصة ، والسر الذى يكتنف مولد طفلى ، والعار الذى يحيق باسمى ؟ انى أكرهك وألعنك ..

وسكنت لأن حلفها كان قد جف من شدة الغضب والغيظ فأصرع الأب جوريو يتراسها ويقول لها :

— ولكنه ابنى وأخوك ومنقذك . قلبه إذن . انظرى إلى كيف أحضننه الآن وأقبله . يا ولدى العزيز : سأكون لك أكثر من أب . ولو كانت ييدى الشموس والكواكب تطرحتها تحت قدميك . تعالى يا انتازى قبله فهو ليس بشراً ، ان هو إلا ملك كريم ووقفت الكونتس ترمق الفتى فى صمت كأنها تستطلع طلعه . فقال لها فى أنفة وصدق : — سيدتى . . تقى أننى سأدفع وسأسكت

وفى هذه اللحظة صرخت دلفين ، لأن الشيخ كان قد سقط على الأرض فى شبه إغماء ، فلما حلوا أزرار قميصه ورأى لهفتهم جعل يقول انه بخير ، وأنه طارىء يزول وشيكاً ، فكل ما هناك أن شيئاً يضغط على جبهته ويسبب له دوارة . ثم تتم :

— همى كله من أجل نازى . يا لابنت المسكينة . . فأتى مشفق عليها من غوائل المستقبل المظلم تصانبا يا بنتى . .

وصاحت انتازى :

— لا أستطيع أن أصفح عنها . لن أنسى لها هذا . ولكن هلا وقمت يا أبى على هذا الاذن حتى أستطيع صرف قيمته ؟

— ماذا دهانى حتى نيت ؟ ولكن اعذرينى فقد فاجأتنى هذا العارض . وتقى أننى سأذهب بأول فرصة لأقوم بما يجب نحو صيانة مصالحك من هذا الزوج الخليط القلب . هاك توقيعى فاذهبى الآن وارسلى إلى خيراً أن المسألة سويت . وحاولى ان تلزى مكسيم جادة العقل وبهت ايميجين لهذا الحنان المهرط . فلما انصرفت انتازى أقبل على الأب جوريو فرفعه الى الفراش وجعل يتلطف معه ..

— بماذا تشعر الآن ؟

— برغبة شديدة فى الناس

ولم يلبث الشيخ أن نام وفى يده كف دلفين . فلما استغرق فى النوم سحبت يدها واستأذنت

في الانصراف ، ولكنها رغبت أولاً في مشاهدة حجرة ايمان التي سيبقى فيها ابنة أخرى بعد أن حالت حالة أبيها دون النقلة الى السكن الجديد هذه الابنة

— ربه . انك أسوأ حالا من أبي المكى . ولكنى فخورة بك ككلمة أختى ، وسأحبك من أجل هذا أكثر وأكثر .. ولكن إذا أردت أن تكون لك ثروة في يوم من الأيام فلا تبذر على هذا النحو واعلم أن مكسيم مقامر كبير لا يستحق المساعدة ، وكان عليه أن يدبر هذا المال بوسائله الخاصة

ونمت إليهما أنه فأسرعا الى غرفة الأب جوريو ، فوجده نائماً في ظاهر الأمر ولكن عندما اقتربا سمعا يتم :

— إنهما ليستا سعيدتين !

فأقبلت عليه دلفين تسأله عن حاله فقال :

— لا تعلق ، فبعد قليل سأنهض وأخرج . اذهبا أنتما واغتنيا لذا ذات الحياة

وصحب ايمان دلفين الى دارها ، ولكنه رفض مشاركتها طعام العشاء متعجلاً العودة ليعلمش على صحة الشيخ المكى ..



بداية النهاية

ولكن متاعب الأب جوريو لم تمنع ايحيى من موافقة دلفين في الاوبرا الايطالية ، ومن الاستمتاع بالسهرة معها ، ومن العودة معها الى مسكنه الجديد حيث شربا من كأس الهوى الى أن فارقت دلفين في الثانية صباحا لتعود الى بيتها . وكان هو مجهداً فأثر قضاء الليل في هذا المسكن ، ولم يصح من نومه إلا قرب الظهر . حين وافته دلفين لترشف رشفة أخرى من نبع الفرام ، وتنفدى مع حبيبها . فقد نسى الشاب في ثورة الأعصاب المنشوقة للهوى أن الشيخ جوريو يشكو منذ أمس ، وأنه وحده ولبس من يرعاه ، فلم يذهب ايحيى لزيارته إلا بعد الرابعة مساء . فلما دخل قال له أحد التلاء ان حالته زادت سوءاً وان بيان شون طالب الطب ملازم له ، وان الكونتس زارته مرة أخرى فلبث مهتاجاً ثم ارتدى ملابيه وهم بالخروج فأغشى عليه ، فأسرع ايحيى بصعد السلم ، ولكن نادته مدام فوكير :

— كان من المتفق عليه أن تخليا حبرتيكما في ١٥ الجاري . وهما نحن أصبحنا في يوم ١٨ . فيجب أن تدفعا الى الشهر الجديد كاملاً . ولست أقول هذا من أجلك أنت ، فاذا ضمنت الى الأب جوريو فان كلمتك تكفيني
— والذا ! لم لا تفقن به ؟

— أتفق ؟ وإذا مات من يدفع لي الأجر ؟ إن بنتيه لن أظفر منهما بدرهم واحد . ولم يبق لديه من المتاع ما يغني حق
— أنا المسئول عن كل شيء

وأمرع بصعد السلم وهو يرتعد رعباً ، فوجد الأب جوريو في فراشه يئن وإلى جواره طالب الطب . وابتسم الشيخ حين رآه وسأله :
— كيف حالها ؟ هل تحتمت بليتها ؟
— مى بخير . . وكيف حالك أنت ؟
— لا بأس

فالتجى بيان شون بإيحيى جانباً وقال له ان الشيخ لن ينجو إلا بمجزة فلا تنمبه بكثرة الكلام . ثم ان نقله مستحيل لأنه يجب أن يجنب كل مجهود جسدى أو عصبى . وقد دعوت له مدير مستشفىنا ولكنه بعد الفحص قال ان لا يمكن أن يدلى برأى قاطع قبل الغد

— مدن دعني معه قليلا واذهب أنت لتناول عشاءك

فلما خرج بيان شون سأل ايچين الأب جوريو عن سر حضور استازى اليه في الصباح الباكر
— بالامسكينة ! لقد حرمتها زوجها المتوحش من كل درهم منذ حادثة المجوهرات . وكانت
قد أوصت من أجل الحفلة الراقصة على توب رائع ، ولكن حائكتها لم تقبل امهاها الدفع بعد
أن شاعت قصة المجوهرات . فتطلع قلبي وجمت الفضيّات النافهة التي كانت باقية لي ، وكنت
أكل فيها ، فزلت وبمتها وأعطيتهما قيمتهما حتى تستطيع أن تسلم نوبها وتفرح بلبسه في الحفلة ،
ثم هي متعلقة بالذهاب لتنفيذ رغبة زوجها الذي يريد أن يظهر «لألا» بالمجوهرات التي شاع أنها
باعتها حتى تسكت الألسنة المنخرصة . ولم تكف الفضية لوفاء الألف فرنك المملو به فبعت ايرادي
هذا العام بأربعمائة فرنك تدفع مقدما ، اني أستطيع أن أصوم أو أكل الحبز الفقار ، أما طفاتي
المسكينة فكيف تستطيع أن تتحمل ألم الحرمان من إيلة سيدة ؟

— كفى كلاما وأنت متعب . ثم واسترح ولا تكلم

ولما صعد بيان شون هبط ايچين ليتعشى ، ثم تناوبا معا السهر على فراش المريض ، وفي الصباح
قال بيان شون ان الحالة لم تزد سوءاً . وفي الساعة السابعة مساء جاءت تيريز وصيفة دافين
بخطاب من سيدتها هذا نصه :

« ماذا تصنع يا صديق العزيز ؟ وماذا شغلك حتى هجرت حبيبتيك وأنتا بعد في بداية غرامكما
المتعب ؟ لا أتدريك إلى القلب وغدر المهد ، فأنت أوفى الناس . ولكن لا تنس أنني أنتظرك
الليلة لذهاب معاً إلى حفلة مدام دي بوسيان الراقصة . وبهذه المناسبة اعلم أن اذن زواج الماركيز
داجودا وقع في الملك اليوم وقد علمت الفيكونتس ذلك في الساعة الثانية ، فلارغب أن كل من
في باريس سيذهب إلى حفلتها الليلة ليرى ماذا هي صانعة ، كما تزدحم الجماهير في الميدان العام
لتشاهد تنفيذ حكم بالإعدام ... اليس هذا مؤثلاً ؟ انني لم أكن لأذهب لولا أن هذه أول دعوة
أتلقيها منها ، ثم هي لن تقيم حفلات بعد اليوم فيما أعتمد . وهناك كذلك متاع مصاحبتي الذي
لا أحب أن يفوتني . فإذا لم أجذك بجوارى بعد ساعتين فلا أعلن أنني سأعتفرك هذا المهجران »
فتناول ايچين قلماً وكتب اليها يقول :

« أنا الآن في انتظار حضور طبيب سيقدر هل يمكن أن يعيّن والدك أم لا ، خالته سيئة
جداً ، وسأتي لأحمل اليك قرار الطبيب وإن كنت أخشى أن يكون بالغ السوء ، وعلى ضوءه
يمكن أن نقرري الذهاب الى الحفلة الراقصة أو الاعتذار عنها ، قبلاتي »

وجاء الطبيب بعد الساعة الثامنة ، وكان رأيّه أن المريض ميؤوس منه ، ولكن مرضه قد
يطول ، وأن حياته تتوقف على عدد التوبّات ومبلغ عقمها . فترك ايچين المريض بين يدي بيان
شون وذهب ليحضر الى دافين هذه الأخبار المؤلمة التي كان يهدد أنها ستقضى على كل اهتمام لديها
بالمسرات الاجتماعية . وفيما هو يهيم بالخروج تنبه الأب جوريو فصاح به :

— قل لما تتمتع بالحفلة والرقص كما ينبغي
وذهب ايجين وحالة الشيخ تدى قلبه فوجد دلفين متزينة منطردة ، لا ينقصها إلا ارتداء
نوب الرقص ، فصاحت به :

— ما هذا ؟ ألم تلبس بعد نوب السهرة ؟

— ولكن والدك ياسيدتى . . .

— أبى أبى أبى ! أترانى بحاجة الى أن ألتقى منك دروساً فيما ينبغي على لوالدى ؟ كلا .
لا تسكلم ! لن أسمع منك شيئاً إلا بعد أن ترتدى ملابسك . فخيرىز وصيفتى قد أعدت لك كل
شئ فى مسكنك الجديد ، نفذ عربتى واذهب الى هناك وتمال بها على عجل ، أما أبى فلدينا
متسع ونحن فى الطريق الى الحفلة الراقصة للكلام عنه . فالزحام سيكون شديداً ولا بد أن
نذهب فى وقت مبكر
— سيدتى . . .

— اذهب قلت لك ولا تنطق بكلمة واحدة

فذهب الفتى كما أشارت عليه وعاد وهو فى أشد حالات السخط والأسى ، حتى لقد تمثل له
العالم محيطاً من الوحل اذا انزلت اليه قدم إنسان غرق حتى الآذان ، وبدا له هذا الجحود وقد
هانت فى جانبه كبائر فوتران ، فى فوتران أريحية لا وجود لها عند هؤلاء المترفات من ربات
الحدور وريديات الصور . وتكشفت له حقيقة عشيقته الجميلة الرقيقة ، فعرف أنها لا تحجم عن
وطء جثة أييها اذا لم يكن هناك طريق آخر الى حفلة راقصة تبهر فيها الأنظار وعجب
لنفسه أنه لا يزال بعد هذا يحبها ، بل ويكتس لها المآذير من جعلها بحقيقة حال والدها

فلما استقلا العربة الى قصر الفيكورنتس دى بوسيان التفتت اليه وسأله عن أييها وحاله :

— شر حال ياسيدتى . ويا حبذا لو مررنا الآن لعيادته

— سنعوده طبعاً ولكن بعد الحفلة ، فلا تكن مترمناً

فوجم الفتى ، فسأله :

— ما بك ؟

— إن أتيتك يرن فى أذنى

ثم أخذ يقص عليها بطلاقة تفاصيل ما وقع لأبيها وزيارة أختها له وما سببته له من نوبة
قلبية توشك أن تودى به من أجل نوب تبدو به فى حفلة اليلة . فدمعت عيناه دافقين وقالت :

— لقد أبكىنى ، وأخشى أن يفرح البكاء أجفانى فأبدو فى الحفلة فيجة الشكل ، و رنوم
برأسى الآن أن أذهب فألزم فراتش أبى

— مرحى ! هكذا أمل فىك

ولكن مصاييح المرات الخمسة التي تنبأه الى قصر دى بوسيان أخذت تتلاشى أمام هينى دلفين ، فقالت :

— سأذهب ، ولكن بعد الحفلة

وكانت الفيكونتس تستقبل المدعوين بكل بشاشة وأتزان ، وقد أفلحت كبرياؤها فى إخفاء حزنها الوجيع ، فقدت كأنها ملكة من ملكات الزمان الخالى ، أو كأنها فارس من فرسان الرومان يلقى الموت أمام الجماهير ويصارع الوحوش باسم الثغر . فلما رأت الفيكونت ايمين داخل رحبت به بحرارة وأخبرته أنها بحاجة اليه ، ثم تأبعت ذراعه الى أريكة يقرب رجال الموسيقى وقالت له :

— اذهب الآن الى دارالماركيز ، وسيصحبك جاك الوصيف الى هناك ويعطيك خطابا تلمه الى الماركيز أطلب اليه فيه أن يرد الى جميع خطاباتي وأنا واثقة أنه سيسلمها اليك جميعها . فإذا أعطاكها فاسعد الى حجرتي الخاصة وأرسل فى طلبى

ونفضت كأنها لم تكن تنبش جراح قلبها الدامية لتستقبل صديقتها الدوقة دى لانجين التي وصلت فى هذه اللحظة . وذهب ايمين حيث أمرته ، فألقى الماركيز عند آل روشفيد أنسابه ، فصحب الماركيز الى قصره وسلمه صندوقا مقفلا وقال له :

— خطاباتها كلها بداخل هذا الصندوق

وكان يبدو على الماركيز أنه يريد أن يقول لإيمين شيئا ، لعله السؤال عن الفيكونتس وعن مدى احتمالها للصدمة ، ولكن كبرياهه حالت دون ذلك ، فقال لإيمين بعد لحظة صمت :

— لا نعدشها عنى بشئ يا عزيزى ايمين

ثم شد على يد القتي فى تأثر وأسى . وفارقه ايمين الى قصر بوسيان فأدخله الخدم الى حجرتها الخاصة ، فالتفت الى الحقت به فيها ، فوضعت يدها على كتفه ، ورأى الدمع فى عينيها لأول مرة ، حين انتزعت منه الصندوق بيد مرتجفة فألقت به فى نارالمدفأة ووقفت ترقبه وهو يحترق ، وقد جف دمهها وجدت معارف وجهها فى أهنة وترفع ، فانهض قلب القتي لهذا القدي رأى ، وزاد إحساسه بمقارة الحياة وما تفيض به من آلام تكتوى بها القلوب الرقيقة السكرية

ولم يفارق ايمين الفيكونتس تلك الليلة حتى انصرف جميع الناس وودعها وداعاً حاراً ، لأنها قررت منذ ذلك اليوم أن تمرل المجتمع فى ركن قصى من الريف وكانت الساعة تقرب من الخامسة صباحاً حين فارقتها عزوئاً

نهاية النهاية

قضى ايجين المسافة بين قصر الفيكونتس وخان فوكير - وهي طويلة جدا - سيراً على قدميه تحت ندى الصباح الباكر الشديد البرودة ، برودة الهزيع الثاني من فبراير . وقصد على أثر وصوله الى حجرة جاره الشيخ ، فاذا يان شون طالب الطب يملأ اليه أن الأمل في إقناذ الأب جوريو قد تلاشى . وأوى ايجين الى فراشه حزناً ، فاقضت ساعتان حتى أيقظه طالب الطب لينوب عنه في ملاحظة المريض ، لاضطراره الى الخروج . وعلم منه ايجين أن حالة جوريو قد ازدادت سوءاً :

— إنه لا يعيش إلا ساعات ، ولكن ليس لنا أن ندع المحاولة وبذل الجهود لانهائه . وهو في حاجة الى علاج كثير التكاليف ، وليس معي أنا درهم واحد ، وقد قلبت جيوب الأب جوريو ودولابه فلم أجده فيه داتماً ، فكيف يمكن أن أنت ؟ فقال ايجين :

— لم يبق معي إلا عشرين فرنكا . ولكنني سأفكر بها وأكسب . . .

— وإذا خسرت ؟

— أطلب مالاً من صهره وبنته

— وإذا لم يعطوك ؟ المهم الآن على كل حال ليس المال ، وإنما لف المريض بلذبة من قدميه الى منتصف الفخذ ، في درجة الفليان ، فاذا صرح كان هناك أمل في شفائه . وسيساعدك كريستوف في ذلك . ولا تنادره حتى أعود . واذا طلب ماء أعطه مما في هذه الزجاجية . . . وتنبه الشيخ لوجود ايجين ، ففتح عينيه وسأله بصوت متضعضع :

— هل تتمتعاً بليتهما ؟

فصاح يانشون :

— إنه لا يفكر إلا في بنته . فقد قال لي الالة الفائنة أكثر من مائة مرة : إنها ترفقان الآن . « انتنازي تلبس الآن ثوبها الجديد . . . » وكان يتأديهما باسميهما ، ويوجه اليهما كلاماً أبكائياً ، وأنا معي الدمع

وعاد الشيخ يتمم :

— دلفين ! إنها هنا ، أليس كذلك ؟ أنا أعلم أنها هنا

وتشجعت عيناه وهو يمدح في جهة باب الحجرة ثم في جدرانها . . فقال يياشون :
 — سأعبط لأوصى سيلتي بعمل اللبغ الحارة ، فهذا أوانها . . .
 وبقى ايجين وحده عند قدمى الشيخ الذى يجود بنفسه . . . ومع هذا قد عرف ايجين بعد
 لحظات في نوبة صموة أخرى ، فسأله ايجين عن حاله فقال :
 — أحسن . فقد بدأ الضغط الشديد على جيبتي يخف . هل رأيت ابنتي ؟ إنها مستحضرة
 بعد قليل . ستسرعان الى هنا متى سمعنا بمرضى . . . كم كنت أتمنى أن تكون الحجرة نظيفة
 حتى تلبق باستقبالهما ، وأن تكون فيها نار للتدفئة
 — إني أسمع كريستوف صاعداً بخشب للتدفئة
 — خشب ؟ ومن أين لي ثمنه ؟ لم يعد لدى درهم واحد . . هل كان الثوب الجديد
 جيلا ؟ . . شكراً يا كريستوف . ولكن ليس معنى شيء أدفعه إليك . . .
 فقال ايجين لكريستوف هما :
 — سأدفع أنا كل شيء لك وسيلتي . . .
 وعاد الشيخ يقول للخادم :
 — لقد قالت لك ابتاي إنهما قادمتان يا كريستوف ، أليس كذلك ؟ إذ ذهب اليهما مرة
 أخرى ، وقل لهما إنني متوقع ، وإني أشتاق أن أقبلهما وأن أراهما مرة أخيرة قبل أن أموت .
 قل لهما هذا ، ولكن بدون أن تخزعهما
 وانصرف كريستوف بإشارة من ايجين واستطرد الشيخ المريض :
 — ستأتيان ، فاني أعرف الناس بقلبيهما . لعمري ان هذه للسكنة دلقين ستحزن حزناً
 مبرحاً إذا أنا مت . . ونأزى أيضاً . . لا أريد أن أموت حتى لا تبكيان . . والموت يا عزيزي
 ايجين معناه الحرمان من رؤيتهما . . فلا ريب في أنني سأشتق أينما ذهبت ، الى جنة صرت أو
 الى نار . . فالجحيم الحق لدى والد بمعنى الكلمة هو حيث لا يكون بنوه . . . ولكنني قضيت
 سنوات التحضير والتمرين على هذا الجحيم منذ تزوجت بنتاي . . . أما نعيمي ، فكان في يتنسا
 القديم في شارع جوسين . . . واذا قدر لروحي أن تطوف بالأرض في بعض الأحيان كإزعمون
 أن الأرواح تطوف ، فلا ريب عندي أنها ستطوف بذلك البيت السعيد . . وإنني لأراهما الساعة
 كما كانتا في تلك الدار ، تهبطان في الصباح فتفردان في سمي : عم صباحاً يا أبناه . . فأخذهما
 بين ذراعي ، وأضعهما في حجرى ، وأظل أداعبهما ساعة طويلة ، ثم فطر معاً ، وتنفدى معاً
 وتنمشي معاً . . لقد كنت في هذا الوقت أباً سعيداً . وكانتا متحابتين . رباه ! لماذا لم تبقي
 صغيرتين ؟ . . آه ! ما أشد هذه الآلام التي تنتابني . . ولو كانتا هنا ، وكانت يداهما الصغيرتان
 في يدي ، لكنت أجد وأقوى على احتمال آلام الجذمية البرحة . . فهل تشفقان عليهما ستأتيان ؟
 كم كنت أتمنى أن أذهب أنا بدلا من كريستوف ، لأنه هو سيراها ، أما أنا فباق هنا ! . . ولكنك

كنت معهما في الحفلة الراقصة بالأمس يا إيجين ، تخبرني كيف كانتا تبدوان ؟ لم تكونا ندرين
طبعاً مبلغ مرضى .. يا لهما من مسكينتين ! انهما لا تزالان في حاجة الى ، وثروتهما تحوطهما
الخطر ... أشفوني سريعاً ، حتى أحاسب زوجيهما الوغدين ! أشفوني فلا بد لهما من المال ،
وأنا أعرف من أين أحصل على هذا المال : سأذهب كما كنت أذهب وأنا في شرح الفتوة الى
أوكرانيا واوديسا لأستورد القمح وأربح الملايين مرة أخرى من أجلهما . آه : ان أوجاعى
تنقل على احتالي ! .. وسكت الأب جوريو لحظة كأنما يستجمع قوته لتحمل آلامه ثم تخم :
— لو كانت ههنا لما شكوت .. ولماذا كنت أشكو ؟

ثم هدأت أنفاسه برهة طويلة حتى ظنه إيجين قد نام ، فلما دخل كريستوف تركه بفضياله
بما لديه بصوت مسموع :

— سيدى ، لقد ذهبت أولاً الى سيدتى الكونتس ولكن لم أستطع مقابلتها لأنها مشغولة
مع زوجها بأمر ذى بال . فلما ألححت خرج الى الكونت بنفسه وقال لى : أتهول ان السيد
يحتضر ؟ ليكن غيرما يستطيعه أن يموت . أما الكونتس فأنا في حاجة اليها في الوقت الحاضر
لانعام مسألة مهمة ، فاذا أتممتا ذهبت اليه . وكان يبدو عليه الغضب فلما هممت بالخروج اذا
بالكونتس تظهر فجأة وتقول لى : « قل لوالدى يا كريستوف اننى مشغولة بالمباحثة مع زوجى
ولا أستطيع ان أتركه الآن لأن الأمر يتعلق بحياة طفلى أو موتها ، ولكننى سأذهب اليه متى
فرغت من تسوية هذا الموضوع » . أما البارونة فلها قصة أخرى : فقد قالت لى وصيفتها : « لقد
عادت سيدتى من الرقص بعد الخامسة صباحاً وهى الآن لا تزال نائمة ، وإذا أبغضتها عاقبتى .
ولكنها متى استيقظت سأخبرها بسوء حال أيتها » وتوسلت اليها بلا جدوى ، فطلبت مقابلة
البارون فقيل لى أنه خرج

فصاح راسيتيك مغيظاً :

— أما من واحدة منهما تخف الى أيهما ؟ سأكتب اليهما

فقال الشيخ المريض :

— أجل ما من واحدة ! فكلتاهما مشغولتان إما بالمناكل أو بالأحلام . كنت أعلم أنهما
سوف لا تأتيان . وظهر أن الانسان لا يمكن أن يعرف حقيقة أبنائه إلا حين يحم قضاؤه .
فاسم نصيحتى يا ولدى ولا تتزوج ولا تنجب أولاداً لأن بذك فالتوك لاعانة . تخرجهم الى الدنيا
فيخرجونك منها . كلا إنهما سوف لا تأتيان . ! وكنت أعلم هذا منذ عشر سنين وكنت أردده
بينى وبين نفسى في بعض الأحيان ولكننى لم أجد فى نفسى من الشجاعة كفاً تصديقه
وجالت فى عيني الشيخ دمتان وقتنا حائرتين بين الفلة والجفن دون أن تسيلا منهما
— ... آه .. لو أننى كنت غنياً ولم أنزل عن ثروتى لهما ، لكنتا الآن الى جوارى تلغقان
خدى بقلاتهما ، ولكنى الآن فى قصر مشيد جبل الحبرات ، زاهر بالحدم ، تدفقه النار بغير

حساب ، ولسكنا الساعة لا يرقأ لهما دمع الى جوار سريري ما وزوجاهما وأطفالهما . اما الآن فلا شيء من هذا كله ، لأنني بلا مال ، ولأنني أعطيت كل ما يمكن ان أعطي . كلا ! بل انني أفضل هذا الفقر المدقع الذي صرت اليه ، فان الفقير اذا شعر أنه محبوب أيقن ان هذا الحب خالص لذاته حقاً ؟ . كلا ! بل ليتني كنت لا أزال غنياً ، فانه لا يحق للأب ان يكون فقيراً ، فانه هو اللجام الذي تجمّع به في يده أعنة بنيه ! وباه.. هاهما تتوجان ماسمتاني إياه عفر سنين سوياً .. يا إلهي ! انك تعلم كم فاسيت منهما وكيف شربت من يديهما كؤوس الإذلال مترعة حتى الثمالة ، وكيف كانت شمس كل صباح تدخر لي طعة من خنجر مسموم تنفوس في سويداء قلبي بسببهما أو من يدهما ، فلماذا يا إلهي تعرضني اليوم لهذا العذاب الجديد ؟ ألم يكف ما تحملته تلك السنين العسر للتكفير عن جرعة حي إياها حباً أعظم مما ينبغي ؟ ان ابنتي كانتا ما العسر التي صنعت أمام الله . كانتا ما موضوع خطيئتي ورذيلتي ! ان ابنتي كانتا عشيقتي ، كانتا غري التي أدمن عليها ، والميسر الذي لا أصبر عنه . وكمن مرة كنت أرى في عينيهما انهما تحجلان مني ومن جهلي بأداب السلوك في دنياهما الجديدة . ولكن لم تكن سني تسمع بادخالي للدرسة من جديد.. رأسي تؤلني . آه لو فتحها لي الطبيب ليخف بعض هذا الضغط عليها.. بنتي انتازي دلتين ! ! أريد أن أراها . ارسلاوا اليهما الشرطة لتحضرا ولو بالقوة ! القضاء والقانون والطبيعة في جانبي لإجابة هذا الطلب ! الى أين يتعذر الوطن والى أي هاوية يساق المجتمع إذا كان الآباء يباسون بالأقدام كما أداس ؟ أريد ان أراها وأسمع صوتها ، مجرد صوتها ، حتى ولو كانتا تقذفاني بالشتم . ولكن قل لهما إذا ما حضرتا لا تنظرا الى نظراتهما القاترة كما تعودتا ان تفعلنا معي ، وان كنت أجهل انني لا أشعر بهذا الفتور . فقد أحبتهما كثيراً بحيث ارتضيت لنفسي مهانة ان أغني وأتوارى لأراهما خلسة وما تحتازان الطريق في حفل من زينتهما وركبهما القارة . ولكن ها أنذا أموت مبتة البعير ولا تخفان لرؤيتي في ساعتي الأخيرة . أريد ابنتي ! أريدما ، فأنا الذي صنمتهما

وتوفز فجلس في فراشه وقد تشعث شعره الأبيض وتشنجت عيناه فهو في حالة من الهياج العصبي الحطري ، فأخذ يهدته ايممين :

— ثم يا أبي فسأكتب إليهما ، ومتى حضر بيان شون سأوجه إليهما بنفسى ان لم تكونا قد جاءتا

فأخذ الشيخ المريض ينشج بالبكاء ويقول :

— ان لم تأتيا ؟ انني اذ أموت دون أن أراها انتشى غيظاً وينفطر قلبي كدماً ! بل ان النفيظ والكمد ليستوليان على وجداني . الساعة ، فها أنذا أرى حياتي كلها في هذه اللحظة كما لم أرها من قبل ، فقد اهتشت عن عيني غشاوة النفلة التي زودتني بها عاطفة الأبوة المفرط . ما دامنا لم تأتيا حتى الآن ، فها لن تأتيا أبداً . ولكن لا يأس من رحمة الله ، فيستولي أبناؤنا بالانقسام



« آحشائی مخموق . . صموا شینآ علی رأسی . . صموا فوفها یدی بانی »

.

,

لى . ماذا أقول ؟ بل هذه هى دلفين . ألم أقل لك من قبل أنها هنا . انها خير الاثنين . فأوسيك
بها يا ولدى ! يحين خيراً ، أحبها وكن لها أباً من بعد أبيها . أما الأخرى فسكنة ليس لها فى
الدنيا من يرعاها . آه . لقد زاد على الوجع . اقطعوا رأسى ، فانه يؤلى ولا حاجة لى به .
حسبى أن يكون لى قلب !

فقال ! يحين وقد فزع للتناور الذى طرأ على حالة الشيخ :

— يا كريستوف ، ادع بيان شون حالا واخضر لى عربة . سأذهب يا أبنى لأخضر
ابنتيك بنفسى

— عنوة ! بالفة ! خذ معك الشرطة ، وقل للحكومة وللائات العام اننى أريدهما بأى شكل
— ولكنك كنت تلغنهما منذ لحظة

فبهت الشيخ وقال له باستنكار :

— من قال هذا ؟ أنت تعلم كم أحبهما وأعيدهما . ان مجرد رؤيتهما سوف يشفىنى مما بى .
فأذهب يا ولدى العزيز الطيب القلب على بركة الله . كم كنت أود أن أشكرك على طيبة قلبك ،
واسكن ليس لدى ما أمتنعك إياه إلا دعوات رجل شقى يقف على أبواب الآخرة . أريد أن
أرى دلفين على الأقل لأوصيها بك نظير المروف الذى صنعت معى . فذا لم تأت الأخرى فهات
دلفين ، فانها ان نعصاك وستأتى من أجلك . اسفونى ! أحشائى تحترق . ضعوا شيئاً على رأسى .
ضعوا فوقها يدى بنى ، فان هذا هو دوائى الناجع ، رياه من يجمع لها ثروة من جديد إذا
مت أنا ؟ أريد أن أشقى لأسافر من أجلهما الى أودسا لاستيراد القمح

— هدى . روعك ، فستراهما هنا بعد قليل

— رأسى . أحشائى . انى أموت . انى أباركهما

وراح فى غيبوبة ، وفى هذه اللحظة دخل بيان شون ففحص عينيه وهز رأسه وقال :

— لا أظن أنه سيفيق من هذه النوبة . وخير له أن يموت لكى لا يطول عذابه . واللى !

من أين لنا المال لأعداد كل ما يلزم ؟

فأخرج ! يحين ساعته وقال لبيان شون :

— أودعها رهينة واقترض عليها ما يمكنك من المال . فانى لا أريد أن أضيع دقيقة واحدة ،

ولا بد أن أجد هنا ما لا أدم منه أجر العربة عند عودتى من لدن هاتين البنتين الجاحدتين



أقصى من الصخر

ما وصل إلي حين إلى قصر ريسنو وطلب مقابلة الكونتس حتى قيل له إنها معتكفة، فقال للوصيف:

— ولكني حاضر من قبل أبيها الذي يموت في هذه اللحظة

— ولكن أوامر الكونت يا سيدي مشددة

— إذا كان الكونت هنا فاني أريد أن أقابله

وبعد برهة طويلة قاده الوصيف إلى صالون وجد فيه الكونت واقفاً أمام مدفأة ليس فيها

نار ، فقال له :

— يا سيدي الكونت إن والد الكونتس في النزاع الأخير في هذه اللحظة ، وحالته مؤلمة ،

فليس لديه فلس واحد ينفقه في التدفئة أو العلاج وهو يطلب أن يرى ابنته قبل أن يموت

فأجابه الكونت ببرود :

— أحنك لاحظت أنني لا أكن للسيد جوريو حبا شديداً ، لأنه أقصد على ابنته وسبب

لي شقاء مقبلا . فوته وحياته لدى سيده ، فعندى الآن أمور أولى بأهتامي . أما الكونتس

فألتها لا تسمح لها بالخروج . ثم لا أوافق على مغادرتها البيت . فقل لأبيها إنها لن تذهب

لرؤيته إلا بعد أن تنى بواجبها نحوى ونحو ابني ، فإذا كانت تحب أبها حقاً فلي استمعها أن

تحصل على حريتها في لحظة واحدة

— أنت معنق السلطان على زوجتك يا سيدي الكونت . ولكني أجأ إلى أريحيتك .

فهل تعدنى بإبلاغها أن أبها لم تنق له في الحياة إلا سويحات وأنه قد صب لعنته عليها لتخلفها

عن سرير مونه ؟

— قل لها أنت هذا الكلام بنفسك

وقاده إلى صالون آخر فوجدها غارقة في الدموع حتى لقد تحركت شفقتة عليها . وألقت على

زوجها نظرة وجل ورعب فأومأ الكونت برأسه مرخصاً لها في الكلام فقالت :

— لقد سمعت كل شيء يا سيدي ، فقل لوالدي إنه لو عرف حقيقة طروفي لفتر لي ،

ولكن المذاب الذي يصب على أقوى من احتمالي

فانصرف إلي حين مبهوتا وقد أدرك أن الكونت يعذبها عذاباً جسمانياً ، ومضى من توه إلى

دلقين فوجدها في فراشها

— إلى مريضة يا صديقي فقد أصابني برد عندي خروجي من الرقص وما أننا في انتظار الطبيب

— حتى لو كنت في النزع الأخير لما جاز لي أن يوفقك عن الذهاب إلى أيك . ولو أنك سمعت صرخة واحدة من صرخاته التي سمعتها لما احتججت الآن بالمرض

— لا أعتقد أن حالة أبي سيئة إلى هذا الحد ، فإني يقتله حقاً أن يعلم أنني جازفت بتعرض نفسي للمرض بذهابي إليه . وسأذهب بمجرد انصراف الطبيب . ولكن أين الساعة ؟ هل بنتها ؟

قال على سريرها وهمس في أذنها :

— اعلمي إذن أن والدك لا يملك ثمن التابوت الذي لا بد من تجهيزه له الليلة ، فرمت ساعتك لأنني خال الوقت

فقفزت المريضة من سريرها وأسرعت إلى درج أعطته منه كيس عودها ، ودقت الجرس لوصيفتها وهي نصيح :

— إني آتية معك يا إيجين ، فألبس بسرعة . اذهب أنت وسأصل أنا فبك . يا تيريز أخبري البارون أنني أريد أن أكله الآن في أمر هام

وخف الفتى إلى الحان مقبلاً بالبشرى التي يعملها للشيخ المسكين ، فلما وصل إلى هناك فتح كيس البارونة الفنية البارزة في الهيئة الاجتماعية ليضع أجر العربة ، فاذا كل ما فيه سبعون فرنكاً

ولقي الطبيب والجراح الذي قام بقصد المريض خارجين ، فابتسمه ببيان شون قائلاً :

— تشجع يا عزيزي إيجين ، فتجن في نهاية النهاية ، ويلزمنا الآن أن نتبرأ غطية القماش التي تلوث بالدم وادع سيلتي لتساعدنا في هذا فلما أخبر إيجين مدام فوكير بالمطلوب قالت له :

— يا عزيزي السيد إيجين أنت تعلم أن الأب جوريو لم يعد يملك شيئاً ، فالأغطية النظيفة سأخسر ثمنها ولا عالة ، فضلاً عن الأغطية الأخرى التي ستلزم للتابوت ، ثم أنت مدين لي حتى الآن بمائة وأربعة وأربعين فرنكاً . زد عليها أربعين فرنكاً للأغطية وغيرها مثل الشمعة التي ستطيك إياها سيلتي ، فيكون المجموع نحواً من مائتي فرنك لا تستطيع أرملة مسكينة مثل أن تتحملها ، فضع نفسك في موضعي واعترني ، فإن وفاة انسان في خاتمي أمر يصرف عنه الناس ، وهذا الحان هو كل حياتي

فأسرع إيجين يصعد السلم دون أن ينطق بكلمة :

— بيان شون .. أين عود رهن الساعة ؟

— هاهى فوق النضد ، وقد بقى منها هجو ثلأعانة وستون فرنكا بعد أن سددت جميع التزاماتها
فى الصبدية وغيرها

وهبط ايمجن كالبرق الحاطف وقال للأرملة :

— هالك ياسيدتى ! خذى حسابك كاملا ، واطمنى ، فلأب جوربو لى يطيل البقاء عندك

— يا سيلفى .. اخرجى الأغضبة واذهى

ثم همت فى أذن ايمجن :

— لاتنس سيلفى ، فانها ظلت ساهرة منذ ليلتين

وحمل الشابان الأب جوربو ليرفاه فوق الفراش ، كل منهما من جهة حتى تستطيع سيلفى
تغيير الأغضبة ، وكانا راكمين لتسهيل العملية ، فانخدع الرجل المحتضر الذى ضعف بهمه
وغشاه الدمع ، فد يديه فوجد فى كل ناحية من ناحيتى الفراش رأساً ، ف جذب شعرها ثم غمغم
فى ضعف شديد :

— يا ملاكى العزيزين ! ها أنتم . .

وكان الجذل ظاهراً فى كلامه الأخيرة التى فقد بعدها الوعى ، فقد حسبها ابنتيه . وقال

بيان شون :

— هذه هى النهاية ، فسيظل هكذا بعض الوقت ثم يموت دون أن ينتبه إلى ذلك أحد ،

لأن جهازه العصبى قد تعطل ، ولن يعى شيئاً ، ولن يثن أو يتأوه

وفى هذه اللحظة سمعت على الدرج خطوات امرأة شابة تصعد لاهنة . فقال ايمجن :

— لقد وصلت متأخرة

ولكنها لم تكن دلفين ، بل تيريز وصفتها التى قالت :

— لقد نشبت مناقشة حامية الوطيس بين البارونة والبارون من أجل المال الذى طلبته لأبيها

فأغشى عليها وحضر الطبيب ..

— كفى يانيريز . لم يعد لحضورها جدوى ، فقد فقد الأب جوربو وعيه نهائياً

وفىا كانت سيلفى خارجة كادت تصطدم عند الباب بالكونتس التى دخلت فى هيئة مروعة

وأخذت تبكى حين رأت والدها ساكن الأوصال فى رقدته الأخيرة فتناولت يده وجمعت

تقبلها وتقول :

— اغفر لى يا أبى فانى لم أستطع الافلات إلا الآن بعد أن أذعنت . أبى ، كنت تقول إن

صوتى خلىق أن يخرجك من قبرك وبقيمك من الأموات فما أنذا أدعوك . لم يعد لى سواك

قلب يحبنى ويهتم بى فى هذا العالم حتى طفلاى سيكرهاني بما جررتهم عليهما . خذنى . مك يا أبى ،

فقد تمت لى النعاسة ! حتى مكسيم دى ترازى الذى كنت أظنه مخلصاً لى قد هاجر تاركا وراءه

ديونا طائلة ، وتأكده لى أيضاً أنه كان يخوننى . وثوروتى حملنى زوجى على التخلي عنها . فهاذا

بقى لى ؟ إن قلبك وحدك هو القلب الذى كان ينطوى لى على حب صادق ولكنى جعده
وتسكرت له

وأفهمت ايجين أنها تريد أن تغلو الى أيتها فنزل ليناول شيئاً من الضام . وبعد لحظات
قليلة سمع من أعلى صوت الكونتس تصرخ :

— مات أبى

وأسرع بيان شون بفحصه ، ثم هبط ليقول لساثر الزلاء :

— إنه مات فعلاً

وحينئذ قالت مدام فوكير :

— الى الضام أيتها السادة فقد كاد الحساء أن يبرد



الدرس الاخير

مات جوريو . وأقبل الزلاء على الطعام قبل أن يبرد الحساء ، فلما انتهى الطعام قام ايجين وبيان شون لاعداد الواجبات الأخيرة لهذا الرجل المسكين الذى مات منبوذاً ممن عاش حياته كلها من أجلهم . وكان أمام الشابين أن يدقفا في كل شيء حتى يكنى مامعهما من مال قليل لاتعام مواراته التراب

توجها أول كل شيء لالتماس قسيس يقبل الصلاة على جثمان الميت أثناء الليل . وفي الساعة التاسعة مساءً أو نحوها سجد الجثمان بين شمتين موقدتين في تلك الترفة المارية ، وجلس إلى جواره القسيس

وقبل أن ينام ايجين سأل رجل الدين عن أتعاب الصلاة ومراسم الجنائز ، ثم كتب كلمة إلى كل من البارون دى نوسنجين والكونت دى ريستو يرجوهما أن يرسلتا من ينوب عنهما في القيام بمصروفات الدفن . 'وأرسل كريستوف بالرقعتين ثم أوى إلى فراشه فنام نوما عميقاً لمدة ما كان يحسه من التعب

وفي الصباح ذهب الشابان - ايجين وبيان شون - لإعلان الوفاة لدى السلطات واستخراج التصريح بالدفن . ومضت بعد ذلك ساعتان وليس من خبر من قبل البارون أو الكونت ، فاضطر ايجين إلى دفع أتعاب القسيس

وطلبت سيلنى الطباخة المدينة عشر فرنكات أجراً لها على خياطة الكفن . فتشاور الشابان وقررا بعد الحساب والمراجعة أنه ليس في طاقتهم أن يقوما وحدهما بجميع التكاليف ، فتطوع طالب الطب بيان شون بوضع الميت في تابوته بنفسه دون معاونة سيلنى ، وأحضر التابوت مما يصرف الفقراء في المستشفى الذى يعمل فيه للمران ، وبهذا لم يكلفه التابوت إلا مبلغاً يسيراً جداً ثم قال بيان شون لايجين في سخريته المبهودة :

— امضى إلى جبانة « بيرلاشير » واشتر حوشاً بشمن مؤجل يغل بعد خمس سنين ، ثم أوص في الكنيسة على صلاة جناز من الدرجة الثالثة . وإذا رفض الصهران والبنتان أن يدفعوا التكاليف ، فاقش على قبر المرحوم هذه العبارة

« هنا يرقد السيد جوريو »

« والد البارونة دى نوسنجين والكونتس دى ريستو »

« مدفونا على نفقة اثنين من الطلبة »

ولكن ايجين لم ينفذ هذا الرأي إلا بعد أن توجه إلى الفصيرين ، فوجد الأبواب هنا وهناك موصدة في وجهه وقال له هذا الباب وذاك عبارة واحدة لم تختلف في مؤداها — سيداي لا يقابلان اليوم أحدا ، فقد مات أبوما ، وما عليه غارقان في أحزان ألمية ! وكان ايجين قد عرف بما خبره من المجتمع الباريسي أن الالحاح لا طائل تحته . وحز في نفسه ألا يستطيع الوصول إلى دلفين ، فكتب لها رقعة وهو في حجرة الباب قال فيها : « يبعي حلية من حليكِ حتى يعطى أبوك بنقطة لائقة إلى مثواه الأخير » وأقلل المظروف ورجا الباب أن يسلمه لتبريز الوصفة كي توصله إلى سيدتها ، ولكن الباب سلمه إلى البارون الذي ألقاه في نار المدفأة دون أن يفقه



وسار الموكب المتواضع إلى كنيسة قريبة ، لا يتبعه إلا ايجين والخدام كريستوف . فهذا الخدام كان هو الشخص الوحيد الذي شعر بدافع لتوديع الشيخ المسكين ، فشد ايجين على يده شاكرًا دون أن يستطيع النطق بكلمة واحدة

وأخيراً حضر كاهنان وشماس وعريف وتلوا أقصى ما يمكن من صلاة لم يتجاوز ما دفع فيها سبعين فرنكا . ثم تلوا مزموراً وبعض الترانيل . واستغرق هذا كله عشرين دقيقة . ولما انتهت الصلاة وبدأ سير الجنازة من الكنيسة إلى المدافن قال القسيس :

— ليس هناك مشيعون ، ففي استطاعتنا إذن أن نغضى بسرعة حتى لا تتأخر ، فالساعة الآن منتصف السادسة

ولكن في اللحظة التي بدأ فيها تحرك العربة الجنائزية ، شوهدت عربتان فارهتان فارغتان على أحدهما شعار الكونت دي ريبستو ، وعلى الأخرى شعار البارون دي نوسنجن . وتبعتهما العربتان النعش إلى مقابر بيرلا شيز

وفي الساعة السادسة وورى الأب جوريو التراب ، وقد أحاط بقبوره خدم بنيه الذين اختفوا باختفاء رجال الدين بمجرد تلاوة الصلاة الأخيرة على المقبرة

وبعد أن أهال اللحدان بعض حفنات من التراب وقت أحدهما إلى الحفرة ومد يده إلى ايجين يطلب أجره . ففتش ايجين جيوبه فلم يجد فلساً واحداً فاضطر إلى اقتراض عشرين سنتيماً من الخدام كريستوف . وكان هذا على بساطته عاملاً على زياده وطأة الكآبة على نفس الشاب . وكان الجو رطباً ثقيلاً على الأعصاب . فنظر إلى الحفرة وذرف دمعته الأخيرة ثم عقد ذراعيه فوق صدره ووقف يرقب السحب الداكنة ، فلما رآه كريستوف على هذه الصورة تركه وانصرف

فلما أتى ليحين نفسه وحيداً صعد الى قمة المقبرة وألقى نظرة على باريس النائمة على ضفتي الدين ،
وقد بدأت الأنوار الأولى تلمع فيها هنا وهناك . وكانت نظرة طالحة بالازدراء والتحدى
وأول ما فكر فيه من أعمال الزرابة والتحدى لهذا المجتمع الراقى ، انه يتم من توه الى
حيث يتناول العشاء على اقتراد مع البارونة دي نوسنجن



الرواية القادمة

مغامرات مستر بيكويك

نص - في ١٥ يناير ١٩٥٣

صندوق يناير القادم

٦٠ سنة في خدمة الثقافة

التمنّى ٥ فردوس
عدد ممتاز